

التغيرات الكونية
بين الفلسفة المادية والأخلاقية

(دراسة تحليلية نقدية)

إعداد الدكتور

إبراهيم منصور صابر إبراهيم

المدرس بقسم العقيدة والفلسفة

كلية الدراسات الإسلامية والعربية

للبنات بالقرين- جامعة الأزهر

التغيرات الكونية بين الفلسفة المادية والأخلاقية

"دراسـة تحليليـة نقدية"

إبراهيـم منصـور صـابر إبراهيـم

قسم العقيدة والفلسفة، كلية الدراسات الإسلامية والعربية بنات، القرين، جامعة الأزهر جمهورية مصر العربية.

البريد الإلكتروني:Ibrahimibrahim.28@azhar.edu.eg

ملخص البحث:

يعالج البحث مسألة التغيرات الكونية من منظور الفلسفة المادية؛ إذ إنه يبين نظرة الماديين إلى أصل الكون، ومما نشأ، ويبحث إشكالية الإلحاد وتداخلها مع التغيرات البيئية عند الماديين، وقد اتبع البحث المنهج التحليلي، والمنهج المقارن، والنقدي، ومن أهم نتائج البحث أنه يبرهن على أن الإيمان التقليدي في كافة صوره ورسالاته يخضع بالاعتراف بوجود الإله المتحكم والمنشئ لهذا النسق الكوني الهائل، في مقابل الفلسفة المادية والتي توصف بالإلحادية التي تعتقد أنه لا إله، وقد ثبت عكسه، ويبرهن البحث على أن اعتماد الفكر المادي على العقل وحده يثبت أنه قد أنكر الوسائل المعرفية الأخرى – كالوحي –التي لا تكتمل الأمور المعرفية بدونها؛ لأن العقل بدون الشرع يضل، والشرع بدون العقل لا يطبق، ولا نجاة ولا أمان للعالم مما هو قادم عليه من نذير هلاك إلا بالاعتصام بالجانب الخلقي المقيد بحدود الحسن والقبح الشرعيين، كما يبرهن البحث على الصلة الوثيقة بين ارتباط فلسفة الأخلاق عند الماديين ونظرتهم تجاه هذا الكون، وفي مقابل تلك النظرة المادية تأتي نظرة الفلسفة الأخلاقية من حيث رؤيتهم لنشأة الكون وعلاقة فطرتهم التوحيدية بهذا من خلال بيان رؤيتهم لأصل الكون من جهة، ومحاولة إفساد ما عليه أصحاب الفكر المادي من جهة أخرى، ويحاول البحث استكشاف مدى أهمية الفلسفة الأخلاقية عند الإسلاميين للمحافظة على هذا الكون.

الكلمات المفتاحية: التغيرات، الكونية، الفلسفة، المادية، الأخلاقية.

Cosmic Changes between Materialistic and Ethical Philosophy "Analytical Critical Study"

Ibrahim Mansour Saber Ibrahim
Department of Creed and Philosophy, College of Islamic and Arabic Studies for Girls, Al-Qorin,, Al-Azhar University, AlSharqia, Arab Republic of Egypt.
Email: Ibrahimibrahim.28@azhar.edu.eg

Abstract:

The research addresses the issue of cosmic changes from the perspective of materialistic philosophy. It illustrates the materialists' view of the origin of the universe, its development, and examines the problem of atheism and its intersection with environmental changes among materialists. The research follows analytical, comparative, and critical methods. One of the most important findings of the research is that it demonstrates that traditional faith, in all its forms and messages, acknowledges the existence of the controlling and creator God of this vast cosmic order. In contrast, materialistic philosophy, described as atheistic, believes there is no God, and this concept has been proven invalid. The research also shows that the reliance of materialistic thought on reason alone negates other epistemological means, such as revelation, which is necessary for completing knowledge. Without divine guidance, reason goes astray, and without reason, divine guidance cannot be applied. There is no salvation or safety for the world from the impending disaster except by adhering to the ethical limits of beauty and ugliness defined by divine law. The research also highlights the close connection between materialists' ethical philosophy and their view of the universe. In contrast to this materialistic perspective, ethical philosophy aims to reveal the origin of the universe and attempts to prove the invalidity of the ideas held by materialistic thinkers. The research attempts to explore the significance of ethical philosophy among Muslims in preserving this universe.

Keywords: Changes, Cosmic, Philosophy, Materialism, Ethics.

مقدمة:

الحمد لله الحق المبين، الذي أبان لعباده من آياته ما به عبرة للمعتبرين، وهداية للمهتدين، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، إله الأولين والآخرين، والصلاة والسلام على سيدنا ومولانا رسول الله، رحمة للعالمين، وعلى آله وصحبه أجمعين.

وبعد،

فمعلوم أن العالم في وقتنا المعاصر يشهد تحولات كبرى، وتطورات متتالية؛ بسبب التقدم العلمي الهائل في كافة النواحي والمجالات؛ وقد كان لذلك آثاره الكونية من خلال التغيرات المناخية.

وقد شاءت إرادة الله تعالى بإيجاد هذا الكون –وما فيه من موجودات–فسخره وما فيه لبني الإنسان حتى أصبح –هذا الإنسان–مديراً لهذا الكون، ومسئولاً بالوكالة عن تعميره [(١)]، والمحافظة عليه من تلك التحولات والتطورات التي تهدد الوجود الإنساني على هذا الكون، هذا الإنسان الذي تختلف رؤيته من شخص

---

(١) الفعل في القرآن الكريم قد ينسب إلى سببه (مظهره) وقد ينسب إلى مسبِبِه (أصله) وعليه فلو سألنا من الرازق لكان الجواب الله بدليل قوله تعالى﴿ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلرَّزَّاقُ ذُو ٱلْقُوَّةِ ٱلْمَتِينُ ﴾ (الذاريات:٥٨) فهذا الفعل –الرزق- منسوب إلى مسبِبِه، وأصله وهو الله تعالى.

وقد ورد في القرآن منسوباً إلى سببه ومظهره في قوله تعالى ﴿وَلَا تُؤْتُوا۟ ٱلسُّفَهَآءَ أَمْوَٰلَكُمُ ٱلَّتِى جَعَلَ ٱللَّهُ لَكُمْ قِيَـٰمًا وَٱرْزُقُوهُمْ فِيهَا وَٱكْسُوهُمْ وَقُولُوا۟ لَهُمْ قَوْلًا مَّعْرُوفًا﴾(النساء:٥) فالرزق هنا منسوبٌ إلى الإنسان باعتباره سببه ومظهره المباشر، ولو سألنا من الذي يتوفى الأنفس؛ لكان الجواب الله فهو مسبِبِه وأصله كما في قوله تعالى ﴿ٱللَّهُ يَتَوَفَّى ٱلْأَنفُسَ حِينَ مَوْتِهَا﴾ (الزمر:٤٢) وقد ورد في القرأن منسوباً إلى سببه ومظهره بدليل قوله تعالى﴿قُلْ يَتَوَفَّىٰكُم مَّلَكُ ٱلْمَوْتِ ٱلَّذِى وُكِّلَ بِكُمْ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُمْ تُرْجَعُونَ ﴾ (السجدة:١١) ومن ثَّم يمكن أن يكون الإنسان مديراً للكون من ناحية السبب المباشر والمظهر لا من ناحية الأصل والخلق والإيجاد.

لآخر نحو هذا الكون؛ لذا كانت نظرة أصحاب الفلسفة المادية للكون وأصله وما فيه من تغيرات تختلف عن غيرها من الفلسفات الأخرى؛ كالفلسفة الإسلامية الأخلاقية.

ولقد اقتضت حكمة الله تعالى بعباده أن جعل من كَوْنِه البرهان اليقيني لألوهيته، وأنه الخالق المبدع للكون وما فيه، غير أن الله سبحانه وتعالى جعل للإنسان في هذا الكون أمورًا غيبية تحتاج إلى أسباب ووسائل؛ كي يقف على حقائقها وأسبابها، فالتزم هذا الإنسان قدر طاقته ما يُعرف بقانون السببية؛ حتى يتصدى لخطر قد يكون سببا في هلاكه؛ كالتغيرات المناخية، فكان لزاما عليه أن يتكئ على جانب أخلاقي فيما نسميه بفلسفة الأخلاق عند شتى الفلسفات المتنوعة.

من هنا نعلم يقينًا أن المحافظة على هذا الكون لا يمكن أن تقف عند حدود الجغرافيا الإسلامية وبلاد المسلمين فحسب، بل هي مسئولية الإنسان الذي حقق، وثْبات وقفزات في شتى العلوم والمعارف التجريبية المادية، وهذا من ناحية عموم وجوده في شتى بقاع الأرض.

هذا كله ما دعاني للبحث في هذا الموضوع، وقد خطرت فكرته عندي من خلال عبارة سمعتها من فضيلة الإمام الأكبر – شيخ الأزهر– الأستاذ الدكتور أحمد الطيب–حفظه الله–حينما قال: إن نظرة الفكر المادي للتغيرات المناخية تختلف عن نظرة الفكر الإسلامي الذي يتأسس على نصوص شرعية مقدسة، توجب احترام البيئة احتراماً شرعيًا، انطلاقاً من أن عوالم الوجود المخلوق مكونة من عالم الإنسان والحيوان والنبات والجماد، وليس كما تبدو في ظاهرها عوالم ميتة، بل هي عوالم حية تتأذى من ظلم الإنسان لها، عوالم تعبد الله تعالى وتسبحه بلغات مختلفة لا يسمعها بنو البشر، ومعلوم منطقيا، أن العلاقة بين الحياة،

والعبادة، والتسبيح علاقة شرط بمشروطه[1]، واستدل بقوله تعالى: ﴿ تُسَبِّحُ لَهُ ٱلسَّمَٰوَٰتُ ٱلسَّبۡعُ وَٱلۡأَرۡضُ وَمَن فِيهِنَّۚ وَإِن مِّن شَيۡءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمۡدِهِۦ وَلَٰكِن لَّا تَفۡقَهُونَ تَسۡبِيحَهُمۡۚ إِنَّهُۥ كَانَ حَلِيمًا غَفُورٗا ﴾[2].

وقد جاءت كلمة فضيلته حينما نظمت جامعة الأزهر الشريف مؤتمرًا عالميًا للمناخ انطلاقًا من دورها الرائد في خدمة الإنسانية؛ لذا استخرت الله تعالى؛ ليكون بحثي بعنوان:

"التغيرات الكونية بين الفلسفة المادية والأخلاقية "دراسة تحليلية نقدية"

- **أهمية الموضوع وأسباب اختياره**

إن الذي دعاني إلى البحث في هذا الموضوع هو ما وجدته من حرص المؤسسة الأزهرية -التي أنتمي إليها-على اقتحام المشكلات التي تهدد الوجود الإنساني، كالمشكلة المُناخية، وكيف كانَت نظرة الفلسفة المادية من ناحية والإسلامية الأخلاقية من ناحية أخرى لها، وقد كان لاختيار هذا البحث اسبابٌ عديدة أذكر منها:

أولًا:- إلقاء الضوء على الفلسفة المادية وموقفها من التغيرات الكونية والمناخية.

ثانيًا:- وضع الفلسفة المادية في ميزان النقد.

ثالثًا:- محاولة ايجاد طرق لعلاج الخلل الكوني البيئي بإيضاح الجوانب الأخلاقية التي تقتضي ذلك.

رابعًا:- بيان دور الفلسفة الإسلامية الأخلاقية في تناولها لهذه المشكلة.

---

(١) يراجع كلمة الإمام أحمد الطيب في قمة المناخ المنعقدة بتاريخ ١٨ / ١٢ / ٢٠٢١م بمركز الأزهر للمؤتمرات. https://www.youtube.com/watch?v=v١qlxY٣ll٧٠

(٢) سورة الإسراء: ٤٤.

- **إشكاليات الدراسة:**

هناك عدة تساؤلات وإشكاليات يثيرها البحث، وهي:

١- هل توجد دوافع للفلسفة المادية تجعلها لا تستطيع أن تخرج عن البوتقة المادية التجريبية، والتي كان لها دور في التغيرات المناخية؟

٢- هل من الممكن أن يكون عند الماديين نظرة أخلاقية تجاه هذا الكون وما فيه من خير، وشر؟

٣- هل يمكن أن تتعامل الفلسفات المختلفة بالحكمة المطلوبة للحفاظ على أمانة الله تعالى عند الإنسان وهي الحفاظ على الكون؟

٤- وما دور الفلسفة الإسلامية الأخلاقية؟

٥- هل يوجد انفكاك بين مسئولية الإنسان الدينية والخلقية والاجتماعية وبين التغيرات المناخية أم عدم الانفكاك حاصل بين هذا وذاك؟

- **منهج الدراسة:**

يشتمل البحث على عدة مناهج، وهي على النحو التالي:

أولًا: المنهج التاريخي: وذلك لمعرفة المتقدم والمتأخر من الآراء، وبيان مدى التأثير والتأثر بينها.

ثانيًا: المنهج التحليلي: وذلك لتحليل وتفكيك نصوص البحث تحليلاً علمياً دقيقاً.

ثالثًا: المنهج المقارن: وقد اعتمدت فيه للمقارنة بين آراء الفلاسفة الماديين، والفلاسفة الأخلاقيين، مع بعضهم البعض في تلك المسألة.

رابعًا: المنهج النقدي: وقد اتضحت صورة هذا المنهج من خلال بيان موقف أصحاب الفلسفة الأخلاقية من أدلة أصحاب الفلسفة المادية والعكس، وبيان أي الموقفين أصح وعلة ذلك.

وقد اعتمدت في بحثي على مصادر أساسية، ومراجع ثانوية، وعزوت كل نقل إلى قائله.

- **خطة البحث:**

يتكون البحث من مقدمة، وتمهيد، وأربعة مباحث، وخاتمة، وفهرس للمصادر والمراجع، وفهرس للموضوعات.

المقدمة: تشتمل على أهمية الموضوع وأسباب اختياره، وإشكالياته، ومنهج البحث وخطة البحث.

المبحث الأول: أصل الكون وصلته بالتغيرات الكونية عند الماديين.

المبحث الثاني: نظرة الماديين إلى التغيرات الكونية من منظور أخلاقي، ومدى ارتباط فلسفتهم الأخلاقية تجاه هذا الكون.

المبحث الثالث: نظرة الفكر الإسلامي والأخلاقي إلى التغيرات الكونية

المبحث الرابع: نظرة الإسلاميين إلى التغيرات الكونية من منظور أخلاقي.

الخاتمة: وتشتمل على أهم النتائج والتوصيات وفهرس البحث.

تمهيد

لا شك أن البحث في أي مسألة من مسائل العلوم تتطلب قبل الخوض فيها تمهيداً، يقف فيه الباحث على بيانها، والغاية التي تهدف إليها؛ ولذا فإن كلمة الفلسفة لغويًا تعني محبة الحكمة، وهي مركبة من جزئيين فيلو– سوفيا

أما الفلسفة المادية: فهي نظرة فلسفية ترى أن الشيء الوحيد الذي يمكن القول بوجوده هو المادة، وتذهب إلى أن المادة هي أصل كل شيء، وسوف يتضح كل ذلك من خلال البحث.

ولا شك أن الفكر المادي امتد منذ جذره الأولى إلى اليونانيين بداية من المدرسة الذرية، مرورا بالمدرسة الإيلية، والرواقية، والأبيقورية، إلى أن وصلت المادية إلى التيارات المختلفة؛ كالماركسية، والوجودية، وغيرها من التيارات.

ولا شك أن جميع ما سبق لا يمكن الإشارة اليه بشيء من التفصيل، بل الغرض هو إبراز الجانب المادي عند هؤلاء من خلال البعض الذين نعرض آرائهم تجاه الكون، وما فيه من تغيرات، ثم إبراز المسائل التي يمكن ربطها بتلك التغيرات؛ كمسألة الإلحاد وأثره على تلك التغيرات.

ومعلوم أن تلك المسألة–التغيرات الكونية–على قدر من الأهمية بمكان؛ لذا لا يمكن أن نغفل عن القاء الضوء تجاه تلك النظرة من واقع الفلسفة الخلقية – على فرض وجودها – عند الماديين للمحافظة على الكون.

غير أن هذه النظرة لابد أن يقابلها نظرة أخرى لإصحاب الفلسفة الأخلاقية الإسلامية للتعرف على الكون، وأصله، وخالقه، ومبدعه، على هذا النظام المحكم الدقيق، وعلى أي أساس يمكن إرجاع ما يحدث في الكون من تغيرات اليها، وهل يمكن أن يكون لعلاقة الأسباب بالمسببات أثرٌ فاعلٌ لتلك التغيرات من وجهة نظرهم الفلسفية؟

على أن المسألة لابد أن يكون لها نظرة عند الإسلاميين من خلال فلسفتهم الأخلاقية؛ لإبراز المحافظة على الكون وما فيه من تغيرات داخل إطار أخلاقي ملزم لهم بفعل هذه المحافظة.

من هنا سيتضح التباين بين الآراء عند كل من الماديين والأخلاقيين في الأسس والمسائل والنتائج نحو تلك التغيرات؛ ولذ كانت المباحث على النحو التالي:

المبحث الأول

أصل الكون، وصلته بالتغيرات الكونية عند الماديين

معلوم أنه قد توحدت كلمة أصحاب الفكر المادي على أن السبب الأول في وجود العالم ليس شيئاً خارجاً عن المادة، وأن المادة أصل كل شيء [١].

وعليه فلا وجود–عند أصحاب هذا الاتجاه–للروح، أو العقل، أو النفس والمادة لا تُخلق ولا تفنى؛ لأنها أزلية، ومعلوم أن هذه المادية في التاريخ الفكري تعود إلى الفلاسفة الماديين فيما قبل سقراط [٢].

لذا: يرى "هيراقليطس" [٣] أن قانون الوجود هو: التغير، وعدم الثبات هو: التجدد المستمر؛ حيث يقول" إن التخالف يجلب الائتلاف، ومن التخالف يأتي أجمل ائتلاف للسرور، وكذلك بالجوع يكون الشبع، وبالتعب تكون الراحة، وما كان الناس ليعرفوا اسم العدالة لو لم توجد هذه الأشياء، كل شيء ينساب، ولا شيء

---

(١) يراجع المذهب الوضعي أو الواقعي لأوجست كونت في دراسات تأملية في الوضعية والبراجماتية، إعداد لجنة من قسم العقيدة والفلسفة صـ ٢٠، ٢١ مكتبة بانسيه بالزقازيق سنة ٢٠٠٩م

(٢) وأشهر رجال الفلسفة المادية في هذا العصر هم الطبيعيون الأوائل أمثال: طاليس الملطى (٦٢٤–٥٤٥ ق.م)، أنكسمندر (٦١٠–٥٤٦ ق. م)، أنكسيمانس (٥٧٨–٥٢٤ ق. م)، وهيرقليطس(٥٤٠–٤٥٧ ق. م) وصولا إلى الطبيعيين المتأخرين أمثال ديموقريطس(٤٧٠–٣٦١ ق.م)

(٣) هيراقليطس: ولد حولي (٥٤٤) ق.م، وتوفى سنة (٤٨٣) ق.م تقريباً، وهو فيلسوف يوناني من "أفسوس" وهي مدينة يونانية في آسيا الصغرى، وهيراقليطس من أسرة أرستقراطية، وقد انسحب من المجتمع وهاجم أهل المدينة وعامة الناس، لإحقاقهم – كما يقول – في إدراك اللوغوس (العقل)، وهو ذلك الجانب الذي يخلع على الموضوعات الطبيعية صورها، ينظر: معجم الفلاسفة المختصر، د. خلف الجراد ص٢٥٤ – ٢٥٥، نشر المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر، ٢٠٠٧م.

يسكن، كل شيء يتغير، ولا شيء يدوم على الثبات، إنك لا تستطيع النزول مرتين إلى النهر نفسه؛ لأن مياها جديدة تنساب فيه باستمرار"[١].

وبناء عليه: يرى "هيرقليطس" أن كل شيء يشمل ضده ويحتويه، فالتغير ينتقل من الشيء إلى ضده؛ ليحل بعضها محل بعض، وكأنه بطرف خفي يعلن أن ما يحدث في الكون من تغيرات بيئية مهلكة ضرورية باعتبار أن التغير مفروض في العالم المادي عنده.

أما بارمنيدس (ولد في إيليا سنة ٥٤٠ ق م) فإنه يرى أن الحقيقة الوحيدة الثابتة التي لا يعتريها تغير ولا فناء هي الوجود الذي يكشف عنه العقل المجرد الخالص وجوهر الكون هو صفة هذا الوجود بل هو أصل الكائنات جميعاً، وهي الحقيقة وحدها، وكل ما عداها وهم وخداع.

وإن كان بارمنيدس يرى أن الوجود ثابت وساكن لا يتغير ولا يتحرك على عكس ما يقول به هيراقليطس فليس معنى هذا انه لا يرى جانب المادة في الكون.

" بل انكفأ راجعاً إلى المادة، يلتمس عندها القالب الذي يصب فيه فكرته، فحقيقة الكون وجود مطلق غير مقيد، ولكنه يشغل حيزاً من مكان، وهو كروي في شكله والحيز والشكل من صفات المادة التي تلازمها وتميزها"[٢]

كذلك نجد هذه المادية عند الرواقية [٣]؛ حيث قامت: "على أساس أن الموجود هو المحسوس فقط، وأن العالم المادي موجود وجودًا حقيقيًا، أما ما ليس بمادي فليس بموجود"[١]. فهم بهذا ينكرون كل ما وراء الطبيعة، وعند الأبيقوريين[٢].

---

(١) هيراقليطس فيلسوف التغيير، د/ علي سامي النشار، د/ محمد علي أبو ريان، د/ عبده الراجحي ص١١٦، طبعة دار المعارف بمصر بدون تاريخ

(٢) قصة الفلسفة اليونانية، تصنيف: د: أحمد أمين، د: زكي نجيب محمود، ص٤٣، مطبعة دار الكتب المصرية ط٢ ١٩٣٥م.

(٣) أتباع زينون (٣٣٦ – ٢٦٤ ق. م) ولد في كيتوم من أعمال قبرص وكان أبوه تاجراً قبرصياً يذهب إلى أثينا للتجارة ويحمل منها كتب السقراطيين فقرأها ابنه ورغب في الاتصال

حيث كان أبيقور مادياً لا يرى إلا المادة، وكل الأشياء مكوّنة من ذرات بل إن النفس ذاتها ليست إلا ذرات تتفرق عند الموت. [٣]

كما يَبْرزُ هذا الاتجاه المادي بصورة كبيرة وواضحة عند الماركسية [٤]؛ حيث يقول انجلس: " إن الفهم المادي، يعني بكل بساطة فهم الطبيعة كما هي دون آيَّة

بأصحابها، قدم أثينا حوالي سنة (٣١٢ ق. م) بعد أن اشتغل هو أيضاً بالتجارة، وتردد على مدارسها وأخذ يعلم في رواق وهذا أصل تسميته هو وأتباعه بالرواقيين، وكان أهم شيء في نظر الرواقيين هو الجانب الأخلاقي. وخلفه (أفلاينتوس (٣٣١-٢٣٢ ق.م)، وتقهقرت المدرسة في أيامه ولكنها عادت فازدهرت بزعامة (أفريسييوس ٢٨٢- ٢٠٩ ق. م) واستحق لقب المؤسس الثاني للرواقية، ينظر: المعجم الفلسفي، د/ عبد المنعم الحفني، ص١٣٥، نشر الدار الشرقية، القاهرة، ط١، ١٤١٠هـ-١٩٩٠م وتاريخ الفلسفة اليونانية، أ/ يوسف كرم، ص ٢٦٧، نشر مؤسسة هنداوي للتعليم والثقافة، بدون تاريخ.

(١) جذور الفكر المادي، د/ عبد المعطي محمد بيومي، ص٤٥، دار الطباعة المحمدية للطباعة والنشر، بدون تاريخ،

(٢) تعتبر الأبيقورية من أهم المدارس الفلسفية في عصر ما بعد أرسطو في الفلسفة اليونانية، وقد تأسست في نفس الوقت الذي تأسست فيه منافستها المدرسة الرواقية في حوالي عام ٣٠٧ أو ٣٠٦ قبل الميلاد، وتنسب الأبيقورية كما هو معروف إلى مؤسسها أبيقور الذي ولد في "ساموس" سنة ٣٤١ ق. م، كان من أبرز شخصيات العصور القديمة ومن أقوى مفكريها، استقر في أثينا سنة ٣٠٦ وأقام المدرسة في داره وحديقته وأوصى قبل موته أن تخصص للمدرسة من بعده ومن هنا أطلق على تلاميذه الذين كانوا يوالون الحضور لحديثه اسم (فلاسفة الحديقة)، وتوفي بعد مرض قاس تحمله عام (٢٧١) ق. م .. ينظر: معجم الفلاسفة – إعداد: جورج طرابيشي، ص٤٠، دار الطليعة للطباعة والنشر، بيروت، لبنان، سنة١٩٩٧م.

(٣) راجع قصة الفلسفة اليونانية، تصنيف: د: أحمد أمين، د: زكي نجيب محمود، ص٣٠١،

(٤) تنسب الماركسية الى "ماركس لينين" الذي ولد من أبوين قلقين مترددين بين اليهودية، والبروتستاتينه، حيث كانا يهوديين، ثم اعتنقا البروتستاتينية قبل أربع سنوات من ولادته، ولما درس الفلسفة أعجب بنظرية "هيجل" المثالية، ولكنه ما لبث أن أنكر إسراف "هيجل" في المثالية، واعتنق الفلسفة المادية، وهو صاحب التفسير المادي الذي يؤمن بالتطور الحتمي،

إضافة غريبة"(١). فَمَا يحدث فيها بسببها هي، وكأنه أراد أن يعلن أن العلاقة بين جزئياتها هي المتحكمة في التغيرات الحاصلة.

بل ويرى انجلس" أن الطبيعة بأجمعها من أضْأَلِ الأجزاء إلى أكثر الأجسام من حبة الرمل إلى الشمس من البروتيست –وهي الخلية الحية الابتدائية– إلى الإنسان هي في حركة دائمة من النشوء والاضمحلال، هي في مد لا ينقطع، وفي حركة وتغير مستمرين أبدين"(٢).

وقد أكد انجلس على أن الواقع المادي هو الواقع الوحيد، أما غيره من الفكر والإدراك فهما تبع لهذه المادة؛ حيث يقول "إن العالم المادي الذي تدركه حواسنا، والذي ننتمي إليه نحن أنفسنا هو الواقع الوحيد، أما إدراكنا وفكرنا، فهما مهما ظهرا رفيعين ساميين، ليسا سوى نتاج عضو مادي جسدي هو الدماغ، إن المادة ليس من نتاج العقل، بل إن العقل نفسه ليس سوى نتاج المادة الأعلى"(٣).

والمتأمل في ذلك يجد أن هذا الاتجاه في التفكير حمل الفلسفة المادية على أن تتعامل مع الطبيعة معاملة من يريد السيطرة على هذا الكائن العظيم، والواقع الوحيد بما يتناسب معه في النواحي المادية، فلا اعتبار لجانب روحي أو أخلاقي؛ لكونهما لا يتناسبان مع كونهما لا مادة.

وهو داعية الشيوعية ومؤسسها الأول الذي اعتبر الدين أفيون الشعوب. ينظر: تاريخ الفلسفة الحديث، يوسف كرم، ص٤٠١، طبعة دار المعارف بمصر، بدون تاريخ، وينظر الموسوعة الميسرة في الأديان والمذاهب والأحزاب المعاصرة، ج٢ ص٩١٩، نشر دار الندوة العالمية للطباعة والنشر، ط٤ سنة١٤٢٠هـ

(١) لورفيغ فورباخ، ونهاية الفلسفة الكلاسيكية الألمانية، فريدريك انجلس ص٦٠، الطبعة الألمانية، وينظر المادية الديالكتيكية، والمادية التاريخية، ستالين ص٤٢، دار دمشق للطباعة والنشر، بدون تاريخ.

(٢) المؤلفات الكاملة ضد وهر ينغ، كارل ماركس وفريدريك انجلس، ديالكتيك الطبيعة، ص٤٩١، موسكو الطبعة الألمانية ١٩٣٥م.

(٣) لورفيغ فورباخ، ونهاية الفلسفة الكلاسيكية الألمانية، انجلس، ص٢٦.

ولكن كيف توجد هذه المادية عند الماركسية؟ هنا يكتب لينين بصدد المفهوم المادي عند فيلسوف العهد القديم هيرا قليط فيقول "إن العالم واحد لم يخلقه أي إله، أو إنسان، وقد كان ولا يزال، وسيكون شعلة حية إلى الأبد تشتعل وتنطفئ تبعًا لقوانين معينة.

ثم يعلق لينين (ت: ١٩٢٤م) على هذا التقرير فيقول: " يا له من شرح رائع لمبادئ المادية الديالكتيكية [(١)] "[(٢)].

إذن: فالفلسفة المادية الماركسية لا تقبل سوى المادة باعتبارها الحياة، ولذلك ترفض وجود إله لهذه الحياة المادية، والوجود الحقيقي، إنما هو الوجود المادي المحسوس، وما لا تدركه الحواس فهو محال.

هذا هو الذي جعل الماديين يتعاملون مع الكون بنظرة من يغلب ويملك السيطرة؛ لأن الكون في نظرهم هو من خلق نفسه وأوجد ذاته، وبناء عليه: لابد من السيطرة عليه، فنادوا بالتجربة الحسية ليتمكنوا من السيطرة عليه، ولم يدركوا أنه مخلوق بمقادير وموازين علمها عند خالقه، وكثرة تدخلاتهم التي اعتبروها تقدما علميا حملت بطياتها الهلاك، فوجدنا الطوفان وارتفاع درجات الحرارة وغير ذلك من المهلكات.

ومعلوم أن هذه المقولات–وغيرها كثير–تعكس اعتقاد الماديين نحو هذا الكون وما فيه من تغيرات.

---

(١) كلمة الديالكتيكية: مشتقة من ديالوج بمعنى المحادثة والمجادلة وهي تعني مجاذبة أطراف الكلام ثم أصبحت الكلمة مصطلحًا علميًا–لأول مرة–في أواسط الألف الأول قبل الميلاد، تعبر بها الفلسفة الإغريقية عن واحد من التصورات الكثيرة للكون والطبيعة. ينظر نقض أوهام المادية الجدلية، د/ محمد سعيد رمضان البوطي، ص١٧، دار الفكر، ط/ ١٩٧٨م.

(٢) راجع الدفاتر الفلسفية، لينين، ص٣١٨، الطبعة الروسية، وراجع المادية الديالكتيكية، والمادية التاريخية، ستالين، ص٤٣.

" فالمادية الديالكتيكية. هي النظرية العامة للحزب الماركسي اللينيني، وقد سُميَت بالمادية الديالكتيكية؛ لأن أسلوبها في النظر إلى حوادث الطبيعة هي ديالكتيكية؛ ولأن تعليلها حوادث الطبيعة، وتصورها لهذه الحوادث، أي نظريتها هي مادية"[1].

وبناء على تلك النظرة الديالكتيكية فما يحدث في الكون من تغيّرات ناتج عن الأخذ والرد في النهضة الصناعية في العالم، وهي التي تعني التقدم في كافة مناحي الحياة لكن على حساب الطبيعة التي اتخذها الماديون إلها لهم.

لذا: قام سارتر (ت: ١٩٨٠م) في تلخيص اعتقاد الماركسية قائلًا" يبدو أن أول خطواتها هو: إنكار وجود الله، وإنكار الغائية العلوية...، وثاني خطواتها: هي إرجاع الروح إلى الحركات المادية...، والثالثة هي: استبعاد الذاتية مع تحويل العالم وفيه الإنسان إلى نسق للأشياء المترابطة فيما بينهما بعلاقات كلية"[2].

والمدقق يجد أنهم أغفلوها . أي: العلاقات الكلية بين الأشياء في العالم . وأهملوا الروابط فيما بينها، فكان التهديد بالانفجار البيئي الذي بدا للعالم من قريب نتيجة لذلك. بل إن سارتر نفسه فسر الوجود تفسيراً مادياً بحتاً وأنكر كل ما ليس بمحسوس ولم يضع اعتباراً للدين أو للأخلاق ويرى ان وجود الإنسان سابق على كل شيء يقول "إن الإنسان ليس إلا مشروع الوجود الذي يتصوره، ووجوده هو مجموع ما حققه"[3]

إن المتأمل يجد أن الفكر المادي قد أغفل عقله فيما يخص الجانب البيئي وما يلحقه من أضرار رغبة في التحكم والسيطرة على العالم عن طريق التقدم العلمي،

---

(١) المادية الديالكتيكية والمادية التاريخية، ستالين، ص١٧.

(٢) المادية والثورة، جان بول سارتر، ص٧، ترجمة عبد الفتاح الديدي، طبع منشورات دار الأدب، بيروت، ط٢ ١٩٦٦م.

(٣) الوجودية مذهب إنساني، سارتر، ص٣٨، ترجمة عبد المنعم الحنفي، مطبعة الدار المصرية، ط١سنة م.١٩٦٤

وكذلك ما يخص الجانب الأخلاقي؛ فهم من أعلن أن البقاء للأقوى؛ لذلك نرى نظرة الماديين إلى العقل والأخلاق نظرة تابعة لوجود المادة؛ لأنها ترى أسبقيتها على الإنسان وكل نشاطاته العقلية والأخلاقية، فهي من تمنح العقل مكانة تالية على المادة؛ ولذا فإن العقل ليس له فاعلية سببية، ووجوده ليس ضروريًا لاستمرار حركة المادة في العالم...، كما أن المادة لا تسبق العقل فحسب، وإنما تسبق الأخلاق كذلك؛ ولذا فإن الأخلاق تفسر تفسيرًا ماديًا، ووفقًا لقانون طبيعي فمنطق الحاجة المباشرة هو الذي يتحكم في الأخلاق الإنسانية تمامًا مثلما تتحكم الجاذبية في سقوط التفاحة"(١).

وعليه فالفلسفة المادية ترى أن هناك محتوى واحدًا للكون، ألا وهو المادة، ولا عقل يتدبر أفعاله المهلكة أو أخلاق تكف صاحبها عن الإفساد في الكون.

ومن ثّم فالماديون لا يرون وجودًا للروح، ولا للعقل، ولا للأخلاق؛ ولذا فكل الخوارق، والظواهر الطبيعية، والتغيرات البيئية هي أوهام، أو أمور تعزى للظواهر الطبيعية.

والسؤال: ألم يدرك الماديون الآن أن ما اعتبروه أوهاماً أصبح سببًا في تدمير وهلاك الإنسانية؟ ألم يدرك الماديون أن الظواهر الطبيعية لم تتغير إلا بسبب تعاملهم مع الكون؟

سؤال ونقض:

ويسأل سارتر ويجيب على سؤال مفاده: من أين يأتي إذن تمسك الماديون بهذا المنهج في البحث بوصفه بناء كونيًا؟ ومن أين لهم أن يظهروا بمظهر المتأكد الواثق من أن العلاقات، وشرطية الظواهر المتبادلة القائمة على المنهج الجدلي تنشئ قوانين المادة المتحركة الضرورية؟ ما دامت علوم الطبيعة تتقدم بروح مناقضة، وتستخدم مناهج متعارضة على نحو صارم، وما دامت علوم التاريخ لا

---

(١) الفلسفة المادية، وتفكيك الإنسان، عبد الوهاب المسيري، ص١٨، دار الفكر بدمشق للطباعة والنشر، ط١ ٢٠٠٢م.

تزال في خطواتها الأولى من الواضح أنهم عندما نقلوا الجدل من عالم إلى عالم آخر لم يشاؤوا الوجودية مذهب إنساني، سارتر، ص٣٨، ترجمة عبد المنعم الحنفي، مطبعة الدار المصرية، ط١سنة ١٩٦٤م.

التخلي عن الامتيازات التي كان يتمتع بها في العالم الأول؛ فاحتفظوا له بضرورته ويقينه، بينما تنحوا عن وسيلة الإشراف عليها، وهكذا شاءوا إعطاء المادة طريقة النمو التركيبي التي لا تنتمي إلا إلى الفكرة، واستعادوا من انعكاس الفكرة في ذاتها نموذجا لليقين ليس له محل في تجربة العالم [١].

والحق أن سؤال سارتر وجوابه عليهم لا يعني كونه بعيداً عنهم، بل هو لا يرى إلا الوجود الذي يخدم فلسفته، وأن الإنسان أوجد نفسه بنفسه، وبهذا يحقق المرء ذاته؛ باختياره الوجود الدائم.

وعليه أقول ههنا: ما سبق عرضه عند الماديين في تصورهم لهذا الكون، وما فيه من تغيرات، يتبين بما لا يدع مجال للشك أنهم يهدمون كل ثوابت الحقيقة في المحافظة على هذا الكون وما فيه؛ ولذلك فهم يرون" أن الأخطاء في التجارب العلمية في الماضي كأن يحدث انفجار، أو ما شابه، كانت تتم داخل دورة الطبيعة لا تتحدى قوانينها، ولهذا فإن دورة الطبيعة قادرة على معالجة مثل هذا الخلل.

وإن تلوثت منطقة ما، فإنه يمكن أن تترك بضع سنوات لتقوم العوامل الطبيعية بإصلاح ما أفسدت يد الإنسان، بل إن التلوث الإشعاعي قد يستمر لمدة (٥٢٠) ألف سنة، ولكنه مع هذا يظل داخل الزمان، ودورة الطبيعة"[٢].

فمن البين الذي لا خفاء فيه أننا بإزاء رأي يعكس جانب المادة لكل جوانب الحياة، وما فيها من تغيرات.

- **إشكالية الإلحاد والتغيرات البيئية.**

يدرك المتفطن لهذه الحقيقة المادية عند هؤلاء الفلاسفة ظهور تلك الفلسفة المادية بسبب فلسفتهم الإلحادية، وإنكارهم لفكرة الإله الذي يسير الكون، ويدبر

---

(١) يراجع المادية والثورة، جان بول سارتر ص٢٦.

(٢) الفلسفة المادية وتفكيك الإنسان، عبد الوهاب المسيري، ص٢٤.

أحداثه، ويعلنها لينين بل يؤكد ذلك فيقول" إذا كانت علوم الطبيعة التي تعكس العالم الخارجي في التجربة الموضوعية أصبح من الواجب نبذ كل نظرية إيمانية على الإطلاق"(١).

وعليه ففكرة الإله عند الماديين لا تدل إلا على الجهل الإنساني، وقد أشار ماركس إلى هذا حينما كتب يقول في نقده لفلسفة القانون عند هيجل "إن الشقاء الديني لهو من جهة تعبير عن الشقاء الواقعي، والدين هو تنهدات الخليقة المنهكة، وهو قلب عالم لا قلب له، وهو كذلك روح عصر لا روح له، فما الدين إلا أفيون الشعوب"(٢).

ثم يُظهر أنصار المادية أن اعتناق فكرة الدين يفضي إلى تفسير ظواهر الكون، والطبيعة بطريق الجهل، والخزعبلات، ذلك لأن الديانة لما كانت تتولد من الجهل فإنها تحل محل التفسيرات العلمية فتعمل بذلك على ستر الواقع، وإسدال الستار على التفسير الموضوعي للظواهر، ولهذا كان الرجل المتدين مناوئًا لمبادئ العلم التي هي عمل الشيطان؛ لأنه حريص على أوهامه (٣).

ومجاراة لهؤلاء الذين جعلوا التفسيرات العلمية مقابلة للديانة التي تتولد من الجهل – على حسب زعمهم – فالماديون يرون أن تفسير الظواهر الموجودة في الكون لابد أن تكون بعيدة عن فكرة الدين، والتدين حتى لا تنطوي على الخيال المخالف لمبادئ العلم.

ومن ثَّم فهم يهدمون فكرة المنقذ الأعلى–الله– ويرون أن فكرة الله، أو فكرة الروح... ليست سوى فكرة فارغة، ورمز للدلالة على جميع ألوان الجهل الماضية للإنسان، فليس هناك منقذ أعلى كما تقول العالمية.

---

(١) المؤلفات الكاملة، لينين، المجلد ١٣ ص١٠٢، ويراجع المادية الديالكتيكية والمادية التاريخية، ستالين ص٥١.

(٢) مشكلة الإنسان، زكريا إبراهيم، ص٨٤، مكتبة مصر للطباعة والنشر، بدون تاريخ.

(٣) يراجع أصول الفلسفة الماركسية، تأليف جورج بوليتزر، ترجمة شعبان بركات، ج١ ص١٦٦، طبع ونشر: المكتبة العصرية، صيدا، بيروت.

والسؤال: أين المنقذ من وجهة نظركم؟ لا يمكن أبدا أن يكون الجواب إلا التعامل مع الكون بالمبدأ الخلقي الإسلامي الذي يرى في ذرات الكون حياة تسبح، وعلى الإنسان أن يحترمها، وأن يقابل كل ما في الكون بجانب أخلاقي حتى يستطيع أن يسلم من حدوث الخلل في سيرانه وحركاته.

فليس للإنسان ما يرجوه إلا ما يكسبه بنفسه في هذه الحياة الدنيا، والنزعة المادية تعلمه أن يرى العالم كما هو العالم في وضعه الصحيح، وليس بالمقلوب"(١).

ولا شك أن رفض أصحاب الفكر المادي لقضية الإيمان قائم على فرضية الارتقاء الذاتي للإنسان، وأزلية المادة في الكون وما فيه، والحق أن المتأمل في هذه الصياغات–ومثيلاتها–يدرك أنها تمثل أرضًا خصبة للفكر الإلحادي؛ فالملحدون وجدوا في الفكر المادي قاعدة ينطلقون منها، ومادة فكرية تؤدي إلى صياغة آرائهم التي تفتقد إلى الروح العلمية المنتظمة.

وقد ترتب على تلك النظرة المادية الإلحادية نتائج خاطئة لهذا الكون، وما فيه من أحداث وتطورات؛ لأنهم رغِبوا في السيطرة على الكون الخالق لنفسه كما زعموا، فسخروا كل إمكاناتهم للتحكم به، وأطلقوا عليه تقدما علميًا، والحقيقة أنه الهلاك السريع بشهادتهم الآن، حين رأوا ارتفاع درجات الحرارة، وذوبان جبال الثلج، وارتفاع منسوب المياه وكثرة الطوفان في المناطق المختلفة من العالم، ألم يأن لهم أن يعترفوا بأن ما في العالم من كَسْب أيديهم، وإذا كانوا قد جعلوا من المادة إلها وأنكروا الخالق الحقيقي وهو الله في الفكر الإيماني التقليدي، فعليهم أن يعترفوا أن ما دعوه إلها وهو المادة التي قدسوها أتى لهم بالشر الذي لم يرغبوه.

---

(١) أصول الفلسفة الماركسية، تأليف جورج بوليتزر، ج١ ص١٦٨، ويراجع إفلاس الفكر الماركسي، د/ محمد عبد الفضيل القوصي–رحمه الله–ص١٧٨، دار الطباعة المحمدية، ط١ ١٤٠٣هـ/ ١٩٨٢م.

تعقيب:

من خـلال الدراسـة فـي هذا المبحـث يمكننـا القول بـأن الفلاسفة المـاديين علـى اختلاف مدارسهم المتنوعة التي بان عرضها فيما تقدم لم يخرجوا عن بوتقة المادة، بل وجعلوها أصل للكون، وهم لا يرون وجوداً للروح، ولا للعقل، ولا للأخـلاق، بل إن ما يحدث في الكون يعود إلى ظواهر الطبيعة نفسها؛ ولعل الداعي من وراء كل ذلك هي نظرتهم الإلحادية، وانكارهم فكرة وجود إله خالق لهذا الكون الذي يدبر أحداثه، ويُسَير أموره، بل إنهم ذهبوا إلى ما هو أبعد من ذلك؛ ليجعلوا فكرة هذا الإلـه ما هي إلا خزعبلات لبنـي البشر تدل علـى جهلهم، ومن ثَّم ارتبط إنكارهم لفكرة الإله بأن جعلوا تفسيراتهم لهذا الكون تفسيرات خاطئة جعلتهم مسئولين عما يحدث فيه من أضرار تؤدي إلى الفساد في البر والبحر؛ كالحرائق، والسيول وما شابه ذلك من أضرار واقعة ومشاهدة أمام المجتمع العالمي لا يمكن لاحد أن ينكرها، او يتجاهلها.

المبحث الثاني

نظرة الماديين الى التغييرات الكونية

من منظور أخلاقي، ومدى ارتباط فلسفتهم الأخلاقية تجاه هذا الكون

أبدأ الحديث بسؤال وضعته في إشكاليات الدراسة، وهو: هل من الممكن أن يكون عند الماديين نظرة أخلاقية تجاه هذا الكون وما فيه من خير، وشر؟ أو ما يسمى بالمسئولية والجزاء؟ ماذا عن نظرتهم للضمير الإنساني تجاه هذا الكون؟

البيّن أنه عندما ينظر الماديون إلى الكون، وما فيه من تغيرات، نجد أن تلك النظرة المادية الإلحادية تنعكس بالتأكيد على الناحية الفلسفية الأخلاقية، ولقد كانت-وستظل-المبادئ الأخلاقية، والقيم السلوكية يحاولون بطريقة، أو بأخرى، وبكل ما أوتوا من جدال وسفسطة إبعادها من تصورهم، وإسقاطها من حساباتهم، بل والتأكيد للناس على أنها محض صدفة، وخيال، ووهم، ليس لها أي حقيقة على أرض الواقع، ولا يمكن تطبيقها عند الناس؛ فأصحاب الاتجاه المادي ينكرون القيم، والمثل، والمبادئ، ولا تؤمن إلا بالفردية الإنسانية؛ لأنها تدعو إلى الانطلاق، وربما تتفق هذه النزعة الإنسانية مع تعريف البعض للأخلاق بأنها "طريقة معينة للنظر إلى مجهود التعبير عن الإنسان في العالم"[1].

وقد علق الدكتور عبد الرحمن بدوي على هذا التعريف قائلًا إنه" ذو طابع وجودي النزعة إذ هو يفترض أن أفعال الإنسان هي التي تخلق وجوده، وتعينه، وما أفعاله إلا تعبيره عن نفسه في العالم"[2].

ثم ماذا عن علاقة البيئة بالسلوك الأخلاقي؟

هنا نقول إذا كان تعريف البيئة " هي كل ما يحيط بالإنسان، ويؤثر فيه تأثيرًا كبيرًا، أو قليلًا كالظواهر الطبيعية"[1].

---

(١) الأخلاق النظرية، د/ عبد الرحمن بدوي، ص٩، وكالة المطبوعات بالكويت ط سنة ١٩٧٥م.

(٢) الأخلاق النظرية، د/ عبد الرحمن بدوي، ص٩.

يتبين للقارئ أنَّ " للبيئة الطبيعية أثرًا كبيرًا في حياة الإنسان، ويلاحظ ذلك في اختلاف سكان الأقاليم في اللباس، والغذاء، والصحة، والمرض، وصفاء الفكر، واضطرابه، وحدة المزاج، وهدوئه، وقد أدرك منشئ علم الاجتماع المفكر المسلم عبد الرحمن بن خلدون فعّقد فصلًا لأثر الهواء في أخلاق البشر"[٢].

وعلى هذا فقد أثبت ابن خلدون تأثير البيئة على الأخلاق قائلًا" من تأثير البيئة الطبيعية في الأجسام، والعقول، والعادات، والأخلاق، ولتنظر إلى أهل البلاد الحارة نجد الكسل، والتواكل، والخفة، والطيش، وعدم الاكتراث، ونرى اليقظة، والتفكير في المستقبل البعيد من الصفات الغالية على سكان الأقاليم الباردة؛ والسبب في هذا أن الحرارة تبعث على الخمول، وأن البرد يتطلب حركة مستمرة في كل آن"[٣]. ومن ثَّم فما دامت العلاقة بين الأخلاق والبيئة قائمة على هذا النحو.

هنا يتداعى السياق لبيان السلوك الأخلاقي للفرد تجاه البيئة، ونظرة الماديين لهذا الأمر.

نقول: لا نجد تعريفًا ينطبق على فلسفتهم المادية أكثر من تعريف "سبنسر" (ت: ١٩٠٣م) في كتابه الأخلاق إذ يقول "بأنه مجموعة الأعمال الحيوانية المتجهة نحو غاية"[٤]، وذلك كالسيطرة والتحكم في العالم عن طريق التقدم الصناعي وغيره.

---

(١) مباحث في فلسفة الأخلاق، د/ محمد يوسف موسى، ص٦٣، مؤسسة هنداوي للطباعة والنشر.

(٢) مباحث في علم الأخلاق، د/ قنديل محمد قنديل، ص٢٣، دار الطباعة المحمدية للطباعة والنشر، ط١ ١٤١٠هـ/١٩٨٩م.

(٣) مقدمة ابن خلدون، ص٨٧، طبعة باريس سنة ١٨٥٨م.

(٤) نقلًا عن مباحث في فلسفة الأخلاق، د/ محمد يوسف موسى ص٧٣، ومعلوم أنَّ مفهوم الغاية مفهومًا واسعًا فقد تكون الغاية هي اللذة كما عند أبيقور، أو غريزة الأثرة كما عند هوبز، أو المنفعة العامة كما عند جون أستورت مل وهكذا يراجع دراسات في فلسفة الأخلاق، د/ محمد عبد الستار نصار، ص١٤٩، وما بعدها، دار القلم، الكويت ط١ ١٤٠٢هـ/ ١٩٨٢م.

ومفاد هذا الأمر أن الغاية هي المتحكمة في سلوك الشخص تجاه الكون وما فيه، وإلى جانب هذا ترى بعض الفلاسفة يعرف الخير بأنه" ما كان في نفسه غاية، ولم يكن وسيلة لشيء آخر وحدّه آخرون، بأنه النظام"[١].

ويمكن القول بجلاء إن السلوك الأخلاقي، وعلاقته بالخير عند أصحاب هذا الفكر يرتبط ارتبطًا وثيقًا بمذهب المنفعة، سواء كانت فردية، أو عامة [٢].

لكن: أليس للضمير ارتباطٌ بمسألة السلوك الأخلاقي ليكون مقياسًا لأعمال الإنسان في الكون، وما يحدث فيه؟

هنا تبرز النفعية في اللذة والألم كما يقول المفكر الفرنسي "أندريه كريسون" الأكثرية من الناس، بل ربما جميعهم، يكون لهم ضمير حتى أدركوا سن الرشد، فحينما يشرعون في عمل فانهم يشرعون بأن هذا العمل إما أن يكون واجب التنفيذ، وإما أن يكون واجب الترك، وإما أن يكون من قبيل المباح، وحينما يقومون بالعمل سواء راعوا الضمير، أم لم يراعوه؛ فإنهم يشعرون بمشاعر مختلفة؛ فإذا كانوا قد خضعوا لحكم الضمير؛ فإنهم يشعرون بتقدير تصحبه لذة ظاهرة الرضا الأخلاقي، أما إذا كانوا لم يستجيبوا لصوت الضمير فإنهم يشعرون باحتقار لأنفسهم شديد الإيلام تبكيت الضمير... ومن هنا نشأ منبع جديد للذة والألم"[٣].

كما أن أصحاب الاتجاه الكسبي ومنهم "ستيوارت مل" (ت: ١٨٧٣م) يرون "أن المرء نشأ عادة في جماعة لها عرفها، وتقاليدها، وأنظمتها، التي تبيح أعمالًا وتثيب عليها، وتحرج أخرى، وتحدد لها عقابًا، والناس يألفون الخير، ويكرهون

---

(١) الأخلاق النظرية، د/ محمد غلاب، ص٧٨، المطبعة المصرية الأهلية، القاهرة، بدون تاريخ.

(٢) ذكر المنفعة العامة، لما يحتج به من البعض من أنه ليست هناك وسيلة إلى إثبات شيء مرغوب فيه إلا بمعرفة الناس يرغبون فيه فعلًا.

(٣) المشكلة الأخلاقية والفلاسفة، أندريه كريسون ص٥٣، ترجمة الإمام عبد الحليم محمود، الأستاذ أبوبكر ذكري، مطبعة دار الشعب ط٢ ١٣٩٩هـ/ ١٩٧٩هـ.

الشر، ... وتطاول الزمن فنسي الناس، أو تناسوا الأسباب الأولى الحقيقية لحب الخير، والميل إليه، وبغض الشر، والبعد عنه، وزعموا أنهم يفعلون الأول بدافع نفسي باطني كما ينأون عن الثاني بدافع نفسي باطني أيضًا وهذا ما سمي بعد الضمير"[(١)].

على أن الدكتور غلاب قد أبان على أن الضمير محدثا عند البعض يقول" أما سبنسر فيرى أن الضمير محدث في الإنسان مثل " استيوارت ميل" ولكنه يختلف معه في سبب مأتاه، فيعتقد أن غريزتي حفظ الذات والنوع دعتا الإنسان إلى تكوين الهيئات الاجتماعية التي تمكنه من الاحتفاظ بذاته، ونوعه.

لقد كان الإنسان بطبعه . في الفلسفة المادية . أنانيًا مفرطًا في الأنانية غير أن القانون الطبيعي لا يسمح ببقاء الفرد المندمج في المجتمع إلا إذا تلاءم مع البيئة التي يعيش فيها تلاؤمًا يسمح له بالبقاء بينها"[(٢)].

ومن البين الذي لا خفاء فيه أن هذه الأقوال السابقة–إن أحسنا الظن بالماديين، وجعلنا هذه الأقوال ربما تتماشى مع نظرتهم الفلسفية الأخلاقية تجاه الكون–وما يتفرع منها لم تقم على دعائم صحيحة، واسس علمية متينة، ولا تجعل للمسئولية، والجزاء مكانة في فكرهم المادي.

وصوب هذا المعنى نقول إذا كانت المسئولية" هي إقرار المرء بما يصدر عنه من أفعال، وباستعداده لتحمل نتائجها"[(٣)].

ترى ماذا يقول أصحاب الفكر المادي في مسئولية [(١)]. كل إنسان تجاه هذا الكون؟

---

(١) مباحث في فلسفة الأخلاق، د/ محمد يوسف موسى، ص٩٨.

(٢) الأخلاق النظرية، د/ محمد غلاب، ص١١٢.

(٣) الأخلاق النظرية، د/ عبد الرحمن بدوي ص٢٢٣. وقد ربط الدكتور محمد غلاب في تعريفه للمسئولية بأن تحمل النتائج يكون على سبيل العدل إذ يقول" المسئولية هي حالة تجعل الإنسان يشعر بوجوب الاعتراف بأعماله، وتلزمه احتمال تبعاتها، وتنبئه بأن العدالة تحتم عليه قبول نتائجها" الأخلاق النظرية ص١٨٨.

ولعل أسدّ ما قيل في هذا، ما أشار إليه الدكتور محمود حمدي زقزوق-رحمه الله-إذ يقول" الإنسان بطبيعته كائن اجتماعي، وهو في حاجة إلى المجتمع الإنساني لتطوير شخصيته. ومن ناحية أخرى فإن عليه التزامات أدبية تجاه هذا المجتمع الإنساني. وهذه الالتزامات التي يمكن أن يعبر عنها بالمسئولية ليست التزامات آتية للإنسان من الخارج فقط، ولكنها مرتبطة أشد الارتباط بوجوده الإنساني.

وكل إنسان سليم العقل يشعر بأنه لو لم يتحمل مسئوليته تجاه الآخرين؛ فإنه لا يجوز له أن ينتظر من الآخرين أن يتحملوا بالنسبة له أية مسئولية. فلو لم أعدل في حق الآخرين، فإنه لا يجوز لي أن أنتظر منهم أن يعدلوا في حقيّ "[٢]

ومن ثَّم فالإنسان الذي يتنكر لالتزاماته تجاه الآخرين سواء أكانوا من البشر أو ما في الكون كله، هو في معزل عن المشاركة الإنسانية.

ولا شك أن الإنسان بطبيعته كائن اجتماعي محتاج إلى المجتمع الذي يعيش فيه؛ ولذا فإن هذه الحالة بالنسبة له مميتة، ولهذا يبدو أمرًا غريبًا، وموقفًا متناقضًا عندما ينكر المرء هذه المسئولية، ويحاول التهرب منها.

ويؤكد الدكتور غلاب على أن الحرية الإنسانية التي تكون شرطًا لتحقيق المسئولية الخلقية لا توجد عند هؤلاء البتة فيقول" لأن الإنسان-ككائن حي-خاضع لنواميس طبيعية، ومؤثرات مادية تصعد وتهبط بأخلاقه، وسلوكه. وفوق كل ذلك يجب ألا ننسى أنه عبد خاضع لقوانين الوراثة القاسية ...، كما أنه يجب علينا أن

---

(١) المسئولية التي نقصدها هي المسئولية الخلقية، حيث إن المسئولية تنقسم إلى ١-المسئولية الاجتماعية ٢-المسئولية الشرعية ٣-المسئولية الخلقية وهي التي نقصدها في هذا المقام، والتي عّرفها الأخلاقيون بأنها حالة تجعل الشخص قادرًا أمام نفسه قبل كل شيء على أن يكون أهلًا لتحمل تبعات أعماله.

(٢) مقدمة في علم الأخلاق، د/ محمود حمدي زقزوق، ص٤٠، دار القلم-الكويت، ط٣/١٤٠٣هـ/١٩٨٣م.

نلتفت بدقة واهتمام إلى تأثيرات البيئتين الطبيعية والاجتماعية على هذا الإنسان المسكين الذي ينشأ فيلقى نفسه مغرقًا في وسط بحر خضم من العادات البيئية التي أصبحت بطول الزمن آلية يندفع إلى عملها دون إرادة، ولا اختيار... وقد يكون كثيراً منها مناقضًا للفضيلة تمام المناقضة، ولكنه لا يقوى على صد تيارها الجارف فكيف يمكن بعد هذا كله القول بأن الإنسان مستمتع بهذه الميزة الزائفة المسماة بالحرية الخلقية، إنه لا يؤمن بها إلا نائم حالم، أو شاعر قاده خياله إلى الضلال المبين"[١].

ومفاد هذا الكلام يؤكد أن أصحاب النزعة المادية لا يهتمون بجانب المسئولية الخلقية تجاه هذا الكون؛ ولعل السبب في ذلك "أن هذه الآراء التشريحية البحتة بعيدة عن التعمق الروحاني كل البعد؛ لأنها ناشئة من دراسة صُنعت كلها على ضوء المادة وحدها، ونحن موقنون بأن وراء هذا الهيكل الإنساني المكون من لحم، وعظم، ودم، جوهرًا آخر أسمى . الروح .، وأرقى من عناصر هذه الكتلة المادية، وهذا الجوهر هو الذي يرفع الإنسان عن الكائنات الأخرى التي ليس لها من المميزات ما يحررها من نير النواميس الميكانيكية"[٢].

لكن ما الذي خَّول للماديين أن يهملوا تلك المسئولية الخلقية تجاه هذا الكون وما فيه.

لا شك أنه قد خول للماديين، بل وأفسح لهم سبيل هذا القول عدم ربط الجزاء بالمسئولية.

هذا الجزاء يشمل ما يترتب على انتهاك الإنسان لقوانين الطبيعة من فساد لهذا الكون، وحدوث تغيرات قد تؤدي إلى فناء هذا الإنسان الذي يعدّ مسئولاً أولًا عن هذه الكوارث البيئية، وتعامله اللاأخلاقي مع بيئته وما فيها من حيوانات ونباتات بلغة برجماتية خالصة أدى إلى شعوره الآن بإمكانية قرب الهلاك.

---

(١) الأخلاق النظرية، باختصار، د/ عبد الرحمن بدوي ص١٩١.

(٢) المصدر السابق نفسه، ص،١٩١،١٩٢.

فالمرء حينما ينتهك القوانين البيئية فيعمل على إفساد الكون، فإن جزاءه في هذه الحالة عقاب طبيعي يتمثل في أضرار تلحق بصحته وحياته.

وإلى هذا المعنى المادي للكون وما فيه من تغيرات، والمرتبط ارتباطًا إلحاديًا من جهة، وعدم الأخلاق في المحافظة عليه من جهة أخرى، بناءً على الأصول التي بسطها الماديون.

ومن ناحية أخرى فقد كان هناك اتجاه آخر يعاكس هذا الاتجاه – بداية ونهاية–، ويؤكد على أن الكون وما فيه صنعة الخالق العالم القدير؛ ولابد من المحافظة على تلك الصنعة الإلهية من الإنسان وهذا ما سنتحدث عنه بالتفصيل في المبحث الثالث.

تعقيب:

مما سبق عرضه يتبين لنا أن مسألة المبادئ الأخلاقية عند الماديين، قد تهافتت وضعفت أيما تهافت وضعف، بل إنهم يجعلون هذه القيم، والمثل، وتلك المبادئ لا وجود لها على الإطلاق؛ وذلك لأن الغاية عند الماديين هي التي تسيطر، وتحكم حياة الإنسان بل إن المنفعة وحدها هي قطب الرحى لدائرة السلوك، والمبادئ والأخلاق، ولا شك إن هذا الأمر يدل على الأنانية المفرطة عند الماديين تجاه هذا الكون، وما يحدث فيه من تغيرات.

هذا الأمر لا شك أنه يدل على عدم المسئولية الخلقية عند أصحاب الفكر المادي، وهم في معزل عن مشاركة بني الإنسان لهذه التغيرات؛ ولعل الداعي من وراء فقد تلك المسئولية الخلقية عدم انشغالهم بفكرة الجزاء الطبيعي والذي يرسله الله تعالى تخويفاً لهم على افعالهم في انتهاك قوانين هذه الطبيعة من فساد وتخريب لما أبدعه الله تعالى، ولا شك أن هذه الأمور جميعها تعود إلى إلحادهم، وانكارهم لفكرة الإله.

المبحث الثالث

نظرة الفكر الإسلامي والأخلاقي إلى التغيرات الكونية

بدا لنا فيما سبق عرضه من الفلسفة المادية وفراغها الأخلاقي أنه ليس إلا انتكاس للفطرة الإنسانية التي تشهد بإله خالق لهذا الكون منظم لحركاته وسكناته، وما من خلل في الكون أو المنظومة البيئية ليس إلا مما كسبت أيديهم، وهذا ما نطق به القرآن الكريم حين قال الله تعالى: ﴿ ظَهَرَ ٱلْفَسَادُ فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِى ٱلنَّاسِ لِيُذِيقَهُم بَعْضَ ٱلَّذِى عَمِلُوا۟ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴾[١].

إن اعتراف الفطرة وإقرارها بوجود خالق لهذا الكون يجعل له ضرورة الاعتراف بقوانينه المنظمة التي وضعها خالقه الخارج عن المحسوسات وليس موافقا لشيء فيه، وهذه نقطة محل اتفاق بين الإسلاميين، وغيرهم من أهل الديانات السماوية.

فالكندي يشير إلى العناية الظاهرة للكون من الله تعالى في فلسفته الإلهية فيقول" فإن في نظم هذا العالم وترتيبه، وفعل بعضه في بعض، وانقياد بعضه لبعض، وتسخير بعضه لبعض، وإتقان هيئته على الأمر الأصلح في كون كل كائن، وفساد كل فاسد، وثبات كل ثابت، وزوال كل زائل؛ لأعظم دلالة على أتقن تدبير، وعلى أحكم حكمة–ومع كل حكمة حكيم؛ لأن هذه جميعًا من المضاف"[٢].

---

(١) سورة الروم: الآية ٤١

(٢) رسائل الكندي الفلسفية، ص٢١٥، تحقيق: د/ محمد عبد الهادي أبو ريدة، دار الفكر العربي للطباعة والنشر، بدون تاريخ، ومما تجدر الإشارة إليه: أن هذا الدليل قد تردد عند القدماء أمثال سقراط أيضًا في مناظرته لشاب لا يؤمن بالله تعالى–اسمه أرسطو ديموس–يقول له أفي الناس من يعجبك براعته في الصنائع فقال نعم وسمى من الشعراء، والمصورين، فقال سقراط: أيهما عندك أرفع شأنًا؟ أمن يصنع التماثيل العادية عن الحركة والعقل؟ أمن يصور الأشباح الحية المتحركة قال من يصنع الصور الحية ... إلى أن قال سقراط أو لست ترى أن صانع الإنسان–في أول نشأته–جعل له آلات الحس لما في تلك الآلات المنفعة الظاهرة، وظل يعدد تلك المنافع... حتى قال أرسطو ديموس: نعم إذا تفكرنا في ذلك لا شك في أنها من فعل صانع حكيم كثير العناية بمصنوعاته" نقلًا عن التفكير الفلسفي في

وعلى هذا فالكندي يشير إلى وجود الله تعالى عن طريق التدبير المحكم، والعناية الإلهية للكون وما فيه بأسره.

والكندي في هذا الدليل يعتمد على العلوم الطبيعية في الكون، بل ويزيد إيضاح كل هذا في رسالة من رسائله الفلسفية سماها "الإبانة عن العلة الفاعلة القريبة للكون والفساد". فما يشاهده الإنسان بحواسه من الظاهرات الكونية أوضح دليل على وجود المدبر الأعلى الواحد الذي هو الموجود الحق.

ويؤكد الفارابي على تدبير العناية الإلهية للكون فيقول" إن الباري جل جلاله، مدبر جميع العالم لا يعزب عنه مثقال حبة من خردل، ولا يفوت عنايته شيء من أجزاء العالم، ... وكل أمر من الأمور التي بها قوامة موكول إلى من يقوم بها ضرورة على غاية الإتقان والإحكام"[1].

الإسلام للإمام الأكبر الدكتور عبد الحليم محمود، ص١٨٤،١٨٥، مكتبة الإيمان للنشر، بدون تاريخ ،بل إن أرسطو قد أشار منذ عهد باكر إلى فكرة الخالق المبدع للكون يقول" إن لم يوجد شيء هو خارج عن المحسوسات، ولم يكن مبدأ، ولا نظام، ولا كون، ولا رأي، لكن يكون لكل مبدأ قبله، وليس من الأشياء الموافقة في الوجود، وعدم الوجود أن تكون المبادئ كثيرة، ولا هو مما يجعل للموجودات جميل النظام، ليس من الجيد أن يكون الرؤساء كثيرين، لكن الرئيس ينبغي أن يكون، راجع :أرسطو عند العرب، د/عبد الرحمن بدوي، ص١١، فصل في حرف اللام من كتاب ما بعد الطبيعة، نشر وكالة المطبوعات، الكويت، ط١٩٧٨/٢م

(١) الجمع بين رأي الحكمين أبو نصر الفارابي، ص١٠٣، باختصار، دار المشرق، بيروت، لبنان، ط٢، بدون تاريخ. وما شابه رأي فلاسفة الإسلام في العصر الحديث نجد "بول ديفيز" يتساءل عما إذا كان هذا العالم نظاماً محكماً، أم مجرد تلفيق فيقول" إن العالم الطبيعي ليس مجرد تلفيق قديم بين الخواص والقوى ولكنه نظام هائل، وعبقري، وموحد من الرياضيات، ولعل كلمات مثل: (إبداعي، وماهر) ليس من المفروض أنها خواص بشرية، ولكن من الممكن أن نسمي بها الطبيعة أيضًا، هل هو مجرد مثال على أننا نسلط الصور من درجات فكرنا على العوالم أم أنها تمثل خاصية عبقرية ومحكمة للعالم "راجع: الاقتراب من الله، بول ديفيز، ص٢٣٩، ترجمة منير شريف، دار الكتب والوثائق القومية للنشر، ط٢٠١٠/١م

ومن ثمَّ فالفارابي يؤكد على أن إله هذا الكون قد صنعه على غاية الإتقان، والإحكام، وكل ما به موضوع بأوفق المواضع وأتقنها، وبناءً عليه: ليس ما يحدث في الكون على حد قول الماديين هو التفاعل الطبيعي بين ذراته المكونة له.

وعلى هذا فقد دّرج فلاسفة الإسلام واحداً تلو الآخر، على أن عناية الكون وإتقانه بما فيه من إبداع وإحكام دليلٌ على وجود الله تعالى، وعلى هذا: يصبح ما يحدث من تغيرات في البيئة من صنع الإنسان نفسه؛ لأن الكون في الفلسفة الإسلامية مخلوق بطريق الإبداع والإتقان.

والحق أن المنهل الرئيس، والمنبع الأصيل في استخدامهم لهذا الدليل هو النص الإلهي الكريم؛ قَالَ تَعَالَى: ﴿ إِنَّ فِي خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ وَٱلْفُلْكِ ٱلَّتِي تَجْرِي فِي ٱلْبَحْرِ بِمَا يَنفَعُ ٱلنَّاسَ وَمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مِن مَّآءٍ فَأَحْيَا بِهِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَبَثَّ فِيهَا مِن كُلِّ دَآبَّةٍ وَتَصْرِيفِ ٱلرِّيَٰحِ وَٱلسَّحَابِ ٱلْمُسَخَّرِ بَيْنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ لَأَيَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴾(١).

لذلك فقد علق الإمام الغزالي (ت: ٥٠٥هـ) على إرشاد النص الإلهي الكريم في العناية والإتقان في حديثه عن معرفة الله تعالى؛ إذ يقول" وأول ما يستفاد به من الاعتبار، ويسلك من طريق الاعتبار ما أرشد اليه القرآن فليس بعد بيان الله سبحانه بيان"(٢).

فالأصل أن الكون مُتْقَن في صنعته، وما يحدث من خلل فيه ليس في ذاتية الصّنْعة، وإنما لعرض الاستخدام الإنساني له.

---

(١) سورة البقرة، الآية ١٦٤

(٢) إحياء علوم الدين، الإمام أبو حامد الغزالي، ج١ ص١٠٥، نشر دار المعرفة، بيروت. وينظر له أيضًا الاقتصاد في الاعتقاد، ص١٣٥، ١٣٤، نشر دار البصائر، بدون تاريخ.

وفي سياق حديث الرازي (ت: ٦٠٦هـ) عن الآية السابقة يقول: " دلت هذه الآية على أنه لابد من الاستدلال على وجود الصانع بالدلائل العقلية، وأن التقليد ليس طريقًا البتة إلى تحصيل هذا الغرض"[١].

وهذا يعني أن ما توافق عليه المذهب المادي من أن الطبيعة سيدة نفسها ليس إلا إنكارا لمقتضيات العقل وقوانينه.

وبناءً على هذا الدليل–دليل العناية والإتقان–نرى بيقين أن الكون وما فيه هو من صنعة الله وحده.

وعلى هذا فالقاعدة التي ينطلق منها الإسلاميون، وغيرهم من أهل الشرائع، بل وطوائف الإلهيين القول بوجود إله لهذا الكون واجب الوجود.

ثم إن الآيات الكونية التي يسوقها الله تعالى إلينا لا ينافي العلم بها من البعض كونها من آيات الله تعالى؛ كنزول المطر، والكسوف، والخسوف، فهذا مما جرت العادة معرفته من البعض.

ومع ذلك كان رسول الكريم كما تروي أُمنا عائشة رضي الله عنها إذ تقول: " كان النبي–صلى الله عليه وسلم – إذا رأى مخيلة في السماء أقبل وأدبر، ودخل وخرج، وتغير وجهه، فإذا أمطرت السماء سري عنه، فعرفته عائشة رضي الله عنها فقال النبي صلى الله عليه وسلم" وما أدري لعله كما قال قوم"قال تعالى: ﴿ فَلَمَّا رَأَوْهُ عَارِضًا مُّسْتَقْبِلَ أَوْدِيَتِهِمْ ﴾[٢]"[٣].

---

(١) مفاتيح الغيب، للإمام فخر الدين الرازي، ج٤ص١٥٣، نشر دار إحياء التراث العربي، بيروت، ط٣/١٤٢٠هـ.

(٢) سورة الأحقاف، جزء من الآية ٢٤

(٣) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب بدء الخلق، باب ما جاء في قوله" وهو الذي أرسل الرياح بشرًا بين يديّ رحمته"ج٤ ص١٠٩ برقم ٣٢٠٦، تحقيق محمد زهير، نشرك دار طوق النجاة، ط١/١٤٢٢هـ.

إذن: فمن علم يقينًا وجود الله تعالى، وأنه المصير لهذا الكون على غاية الإبداع والإتقان، علم–حتمًا–أن كل ما في الكون من تغيرات عبارة عن كسب بني آدم من صنيع أيديهم، فالله لا يأتي بشرّ، وإنما ليذيق بني آدم ما جلبته عليهم أعمالهم، فالجزاء من جنس العمل دائما، ولا دخل للطبيعة بذاتها، لأنها مسيرة بأمر الله تعالى، محكومة بعلمه، موجودة بكل ما فيها بقدرته، ومخصصة بإرادته، وقد حثنا القرآن الكريم على التفكر والنظر في تلك الآيات الكونية، وما فيها من إعجاز لله تعالى يقول سبحانه وتعالى﴿ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴾ (١).

ولا شك أن هذه التغيرات الكونية ترتبط بسبب في حدوثها غير أن تلك الأسباب قد تكون أسباباً حسية، وقد تكون أسباباً شرعية.

- **التغيرات الكونية بين الأسباب الكونية، والأسباب الشرعية.**

إن المتأمل في الكون وما فيه من تغيرات مشاهدة، أو غير مشاهدة، من ليل، ونهار، ورعد، وبرق، وخسوف، وكسوف، ومن رياح، وأمطار، إلى غير ذلك من أحداث، يعلم يقينًا أنها بقدرة الله تعالى وحده، والله تعالى يسوقها عظة واعتبارًا لمن أراد أن يعتبر بقوله تعالى﴿ سَنُرِيهِمْ آيَاتِنَا فِي الْآفَاقِ وَفِي أَنفُسِهِمْ ﴾ (٢).

غير أن هذه التغيرات الكونية قد ترجع في حقيقتها إلى التعلق الكوني، وقد ترجع إلى التعلق الشرعي.

فمعلوم أن كسوف الشمس يقع بسبب وقوع القمر بين أبصار الناس وبين الشمس، وإذا تراكمت السحب فإن هذا يؤدي إلى وقوع الأمطار قَالَ تَعَالَىٰ:﴿ وَاللَّهُ

---

(١) سورة الروم جزء من الآية٢١، الزمر جزء من الآية٤٢، الجاثية جزء من الآية١٣. وهذه الآية الكريمة على سبيل المثال لا الحصر للآيات التي تحثنا على ذلك؛ لأنه يوجد في القرآن الكريم ما يربو على ألف آية تتحدث عن معالم الكون وما فيه من مفردات.

(٢) سورة فصلت، جزء من الآية٥٣.

ٱلَّذِىٓ أَرۡسَلَ ٱلرِّيَٰحَ فَتُثِيرُ سَحَابًا فَسُقۡنَٰهُ إِلَىٰ بَلَدٍ مَّيِّتٍ فَأَحۡيَيۡنَا بِهِ ٱلۡأَرۡضَ بَعۡدَ مَوۡتِهَاۚ كَذَٰلِكَ ٱلنُّشُورُ ﴾[1].

وكذا في اختلاف الليل والنهار قَالَ تَعَالَىٰ:﴿ وَجَعَلۡنَا ٱلَّيۡلَ وَٱلنَّهَارَ ءَايَتَيۡنِۖ فَمَحَوۡنَآ ءَايَةَ ٱلَّيۡلِ وَجَعَلۡنَآ ءَايَةَ ٱلنَّهَارِ مُبۡصِرَةً لِّتَبۡتَغُواْ فَضۡلًا مِّن رَّبِّكُمۡ وَلِتَعۡلَمُواْ عَدَدَ ٱلسِّنِينَ وَٱلۡحِسَابَۚ وَكُلَّ شَيۡءٍ فَصَّلۡنَٰهُ تَفۡصِيلًا ﴾ [2].

ومن ثمَّ يتبين لنا أن هناك تغيرات بيئية ترجع في الأصل إلى التعلقات الكونية الإلهية في تعلق المسببات بأسبابها، وفي مقابل تلك التغيرات، تأتي تغيرات كونية من جهة الشرع الحنيف، والتي قَطَع النص بدلالتها كما يقول تَعَالَىٰ:﴿ وَلَوۡ أَنَّ أَهۡلَ ٱلۡقُرَىٰٓ ءَامَنُواْ وَٱتَّقَوۡاْ لَفَتَحۡنَا عَلَيۡهِم بَرَكَٰتٖ مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلۡأَرۡضِ وَلَٰكِن كَذَّبُواْ فَأَخَذۡنَٰهُم بِمَا كَانُواْ يَكۡسِبُونَ ﴾[3]. قَالَ تَعَالَىٰ:﴿ فَقُلۡتُ ٱسۡتَغۡفِرُواْ رَبَّكُمۡ إِنَّهُۥ كَانَ غَفَّارًا يُرۡسِلِ ٱلسَّمَآءَ عَلَيۡكُم مِّدۡرَارًا وَيُمۡدِدۡكُم بِأَمۡوَٰلٖ وَبَنِينَ وَيَجۡعَل لَّكُمۡ جَنَّٰتٖ وَيَجۡعَل لَّكُمۡ أَنۡهَٰرًا ﴾ [4]

فالنص الكريم يبين أن نزول المطر والخيرات وكثرة الأولاد والرزق سببه الاستغفار من المخلوقين لله رب العالميين؛ ولذا فالأسباب قد تكون كونية، وقد تكون شرعية.

- **علاقة الأسباب بالمسببات، وارتباطها بالتغيرات الكونية.**

تَبْرز من بين القضايا التي اتصلت بمسألة التغييرات الكونية، قضية علاقة الأسباب بالمسببات، والتي كانت مثار جدل بين المشتغلين بها، فهناك من يرى

---

(١) سورة فاطر، الآية٩.

(٢) سورة الإسراء، الآية١٢.

(٣) سورة الاعراف، الآية٩٦.

(٤) سورة نوح، الآيات من ١٠-١٢.

أنها عادية، والبعض الآخر يرى أنها ضرورية، ومن ثَّم فهل لهذه العلاقة وصحتها عند قائليها ارتباط بحقيقة تلك التغيرات الكونية؟

هنا نرى رأيين في هذه المسألة.

<u>الرأي الأول</u>: القائلون بأن العلاقة بين الأسباب والمسببات علاقة عادية كما يرى الإمام الغزالي إذ يقول: "الاقتران بين ما يعتقد في العادة سببًا وبين ما يعتقد مسبباً، ليس ضروريًا عندنا بل كل شيئين، ليس هذا ذاك، ولا ذاك هذا، ولا إثبات أحدهما متضمنًا لإثبات الآخر، ولا نفيه متضمناً لنفي الآخر، فليس من ضرورة وجود أحدهما وجود الآخر، ولا من ضرورة عدم أحدهما عدم الآخر، مثل الري، والشرب، والشبع، والأكل، والاحتراق، ولقاء النار..، فإن اقترانها لما سبق من تقدير الله سبحانه وتعالى يخلقها على التساوق لا لكونه ضروريًا في نفسه"[1].

وعليه فبمقتضى هذا النص عند الإمام الغزالي قد يحصل الشبع بدون الأكل، وكذا تتراكم السحب ولا ينزل المطر، وهكذا؛ إذ أن العلاقة بين الأسباب والمسببات راجعة لقدرة الله سبحانه وتعالى في شتى التغيرات الموجودة في الكون.

<u>الرأي الثاني</u>: القائلون بأن العلاقة بين الأسباب والمسببات علاقة ضرورية وهنا يقول ابن رشد: " (ت: ٥٩٥هـ) أما إنكار وجود الأسباب الفاعلة التي تشاهد في المحسوسات، فقول سوفسطائي، والمتكلم بذلك إما جاحد بلسانه لما في جنانه، وإما منقاد لشبهة سوفسطائية عرضت له في ذلك" [2].

---

(١) تهافت الفلاسفة، الغزالي، ص ٢٣٩. تحقيق د/ سليمان دنيا، نشر دار المعارف المصرية، ط٥ ٢٠٠٧م. ومما تجدر الإشارة إليه أن "ديفيد هيوم" يرى أن العلاقة بين الأسباب ومسبباتها عادية. يراجع: تحقيق في الذهن البشري، ديفيد هيوم، ص٥٤، ترجمة محمد محجوب، المنظَّمة العربيَّة للترجمة، بيروت، الطبعة الأولى، ٢٠٠٨.

(٢) تهافت التهافت، ابن رشد، القسم الثاني ص ٧٨١، تحقيق د. سليمان دنيا، دار المعارف.

بل ويتابع ابن رشد اعتراضه على قول من يرى أن العلاقة عادية فيقول" إن الله تعالى أجرى العادة بهذه الأسباب، وأنه ليس لها تأثير في المسببات، إذ أنه قول بعيد جداً عن مقتضى الحكمة، بل هو مبطل له" [١].

وعليه فابن رشد يرى أن العلاقة العادية مبطلة للحكمة الإلهية.

ومن خلال هذه الرؤية الموجزة[٢]، يتبين لنا أن علاقة الأسباب بالمسببات عند الغزالي علاقة عادية وعند ابن رشد علاقة ضرورية الأمر الذي يظهر فيه التفاوت قائما بين الرأيين[٣].

بخلاف البعض الآخر الذي يحاول تضيق هذا التفاوت، وذلكم التعارض من خلال تحرير محل النزاع بين القولين.

وهنا يقول الدكتور عبد المعطي محمد بيومي: "إن المتأمل في نصوص الرجلين تأملًا فاحصًا، يدرك التقارب بينهما وعليه أن يتم قراءة ابن رشد إلى نهايتها"[٤].

وبعد هذا التحليل في علاقة الأسباب بالمسببات، وارتباط هذه العلاقة بالتغيرات الكونية، وحين ندقق النظر نقول إنَّ ما ذكره الدكتور عبد المعطي في التوفيق بين الرأيين صحيح.

---

(١) مناهج الأدلة، لابن رشد، ص ١١٤، تحقيق د/ محمود قاسم، طبع ونشر مكتبة الأنجلو المصرية، سنة١٩٦٤م.

(٢) ليس الغرض عرض المسألة بتفصيلها على نحو فلسفي، بيد أن الإشارة إلى المسألة من هذه الجهة لربط علاقة الأسباب بالمسببات، وتأسيسها من جهة التغيرات الكونية.

(٣) كما هو عند الدكتور زكي نجيب محمود، في كتابه المعقول واللامعقول، طبعة دار الشروق ط٣ ١٤٠٦هـ/١٩٨٥م، ومن يتصفح الكتاب يدرك النقد الشديد لرأي الإمام الغزالي في المسألة وموافقة رأي ابن رشد، للدكتور زكي نجيب محمود.

(٤) السببية عند الغزالي، د/ عبد المعطي محمد بيومي، ص٣٠٧، بحث مستل من مجلة البحوث والمقالات، جامعة قطر، العدد٦٦ لسنة١٤٠٦هـ/١٩٨٦م.

ويمكننا أن نُبرز ذلك التوفيق من خلال المسألة موضوع البحث، فكما ذكرنا آنفًا في كون الأسباب كونية، وشرعية وكلتاهما مقدور لله وحده، فحينما ينزل المطر عند وجود السحب فالعلاقة قد يتصورها البعض ضرورية، كما يقول ابن رشد، والفاعل في الحقيقة هو الله تعالى.

وإذا نزل المطر من غير سحب، بطريق الدعاء، والاستغفار؛ فالعلاقة قد يتصورها البعض الآخر عادية كما يقول الإمام الغزالي، والفاعل هو الله تعالى أيضًا.

ولهذا نجد الدكتور عبد المعطي يلفت أنظارنا تجاه الظواهر الكونية في مسألة التوفيق بين الرأيين فيقول:" وقد أشار القرآن الكريم أكثر من مرة إلى الظواهر الكونية، ولفت الأنظار إلى ثبات هذه الظواهر، قال تعالى: ﴿وَءَايَةٌ لَّهُمُ ٱلَّيۡلُ نَسۡلَخُ مِنۡهُ ٱلنَّهَارَ فَإِذَا هُم مُّظۡلِمُونَ ۝٣٧ وَٱلشَّمۡسُ تَجۡرِي لِمُسۡتَقَرّٖ لَّهَاۚ ذَٰلِكَ تَقۡدِيرُ ٱلۡعَزِيزِ ٱلۡعَلِيمِ﴾ (١)، ولو لم يكن تقدير الله مقتضيًا لثبوت الظاهرة، بحيث يجوز عند توفر شروطها أن تحدث أو لا تحدث لكان ذلك عبثاً يتنافى مع الحكمة المبثوثة في الكون، ولذلك يقول المولى: ﴿ وَمَا خَلَقۡنَا ٱلسَّمَآءَ وَٱلۡأَرۡضَ وَمَا بَيۡنَهُمَا لَٰعِبِينَ ﴾(٢) وعدم حدوث الظاهرة الكونية المتوقعة لعدم إحراق النار لسيدنا إبراهيم عليه السلام، هو الاستثناء الذي يثبت القاعدة ومن هنا تأتي أهمية المعجزة لأنها خرق للقاعدة الكونية"(٣).

إذن: فقانون السببية ليس قانونًا موحدًا في العلاقة بين السبب والمسبب، كما يعتقد الكثيرون، فحينما ترى النواميس الكونية التي اعتاد عليها البشر؛ كنزول المطر، وغيرها تكون العلاقة فيها بين حركة وحركة ضمن حكمة إلهية وهى ليست ضرورية

---

(١) سورة يس، الآية (٣٧، ٣٨).

(٢) سورة الأنبياء، الآية (١٦).

(٣) السببية عند الغزالي، د/ عبد المعطي، ص٣١٣، ٣١٤.

عند أهل السنة والجماعة؛ لأن المطر قد يكون سببه هو السحب، وقد يكون سببه هو الدعاء، واللجوء إلى الله تعالى وكل هذا من الإمكانات في حقه تعالى.

وعليه فالغزالي لم ينكر ضرورة عمل الأسباب في المسببات، وانما يجوز استبدال الأسباب بأخرى والفاعل الحقيقي في كلا الأمرين هو الله تعالى.

ومن ثَّم توضح لنا المسألة معالم فكر الإمام الغزالي وملامح رأيه حينما نمعن النظر فيه وأن من يهاجم الإمام الغزالي لفكرته في ارتباط الأسباب بالمسببات لم يفهم مقصده، ولم يكن على صواب في رأيه تجاه الإمام الغزالي.

- **التغيرات الكونية، وعلاقتها بالذنوب والمعاصي:**

رأينا كيف فرق الإسلاميون بين الأسباب الحسية، والشرعية للتغيرات الكونية، وعلى ضوء هذه التفرقة كان لارتباط الذنوب والمعاصي من الإنسان أثرٌ فاعل لهذه التغيرات.

هنا نقول: إن ارتكاب الإنسان للذنوب والمعاصي، وعدم المحافظة على النعم التي سخرها الله تعالى له، من أجل سعادته في هذا الكون، يعد من أسباب زوال تلك النعم، وحلول النقم والمحن، ومن ثَّم تقتضي العناية الإلهية تخويف الإنسان بما يحدث من آيات كونية؛ ليكون ردعاً له؛ ولذلك يقول الله تعالى ﴿ظَهَرَ ٱلْفَسَادُ فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِى ٱلنَّاسِ لِيُذِيقَهُم بَعْضَ ٱلَّذِى عَمِلُوا۟ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾[1].

وهنا يربط الإمام الفخر الرازي بين الشرك، وبين ظهور الفساد فيقول" إن الشرك سبب الفساد...، وإذا كان الشرك سببه، جعل الله إظهارهم الشرك مورثًا لظهور الفساد"[2].

---

(١) سورة الروم، الأية٤١.

(٢) مفاتيح الغيب للإمام الفخر الرازي، ج٢٥ ص١٠٥، وقد أشار الطاهر بن عاشور إلى أن هذه الآية من جوامع الكلم، والمقصد منها هو الموعظة بالحوادث ماضيها وحاضرها

ويشير الإمام البيضاوي(ت:٦٨٥هـ) إلى بعض أنواع الفساد الذي يقع فيقول" ظهور الفساد في البر والبحر كالجدب، والموتان وكثرة الحرق، والغرق، وإخفاق الغاصة، ومحق البركات، وكثرة المضار أو الضلالة والظلم"(١).

وعليه فالإمام البيضاوي يعدد انواعاً للفساد الذي يقع في الأرض بسبب معاصي الإنسان والتي منها الجدب، وكثرة الحروق، وكثرة الغرق، علاوة على محق البركة، وإضلال الناس وظلمهم مع بعضهم البعض.

أما صاحب التأويلات فقد ربط فساد الأرض بفساد أهلها يقول " الأرض لا تفسد بنفسها، ولكن وصفت بالفساد؛ لفساد أهلها، فعلى ذلك لا تنقص هي بنفسها، ولكن وصفت بالنقصان؛ لذهاب أهلها، وعمارها، وفقهائها، وعلمائها"(٢).

ومن ثَّم فكل هذه التأويلات –ومثيلاتها–تبين لنا أهمية الاعتراف بوجود الخالق المدبر لهذا الكون، وما فيه من إبداع.

بالإضافة إلى التنبيه بفساد الأرض مع وجود الشرك والإلحاد من بعض طوائف الناس–كالماديين مثلًا–، وإلى نفس هذا المعنى يشير صاحب صيد الخاطر فيقول" خطرت لي فكرة فيما يجري على كثير من العالم من المصائب الشديدة، والبلايا العظيمة، التي تتناهى إلى نهاية الصعوبة، فقلت سبحان الله؟ إن الله أكرم الأكرمين والكرم يوجب المسامحة؟ فتفكرت فرأيت كثيرًا من الناس في وجودهم كالعدم لا يتصفحون أدلة الوحدانية، ولا ينظرون في أوامر الله تعالى

للإقلاع عن الإشراك وعن تكذيب الرسول صلى الله عليه وسلم، ينظر التحرير والتنوير، الطاهر بن عاشور، ج٢١ ص١٠٩ن نشر الدار التونسية للنشر، سنة ١٩٨٤م.

(١) أنوار التنزيل، وأسرار التأويل، للإمام ناصر الدين البيضاوي ج٤ ص٢٠٨، تحقيق: محمد عبد الرحمن المرعشلي، نشر دار إحياء التراث العربي، بيروت لبنان، ط١ ١٤٢٦هـ/٢٠٠٥م وينظر الكشاف عن حقائق غوامض التنزيل، لأبي القاسم الزمخشري ج٣ ص٤٨٢، نشر دار الكتاب العربي ط٣/ ١٤٠٧هـ.

(٢) تأويلات أهل السنة، للإمام أبي منصور الماتريدي ج٦ ص٣٥٥، تحقيق: مجدي باسلوم، نشر دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان ط١(١٤٢٦هـ/٢٠٠٥م)

ونواهيه، بل يجرون على عاداتهم كالبهائم، فإن وافق الشرع مرادهم فيها، وإلا فمعولهم على أغراضهم"(١).

ولا يخفى على المتأمل في كل ما سبق ذكره أن قضية الإيمان بالله تعالى ترتبط ارتباطًا وثيقًا بما يحدث في هذا الكون من تغييرات وأحداث.

الأمر الذي أطنب فيه الإسلاميون، وغيرهم من أهل الأديان؛ لدعوة غيرهم من الماديين الملحدين؛ من أجل الإذعان بوجود إله خالق لهذا الكون.

ومن ثَّم يمكن القول بجلاء أن ما يصيب الأفراد، والمجتمعات من المحن، والنكبات؛ راجع إلى ما يصيبه الإنسان بيده، وهذه سنة كونية من الله تعالى لعباده.

فالحق إذن أن هناك ارتباطاً بين ما يحدث من تغيرات بيئية، وبين مسألة الإلحاد؛ حيث إن بُعد الإنسان عن الخالق المدبر لهذا الكون، يجعل الإنسان عرضة من الله تعالى لإنزال المحن والنكبات به، ولكنك حين تمعن النظر في فكر الإسلاميين تجاه هذا الكون، والمحافظة عليه ترى أن إمكان ذلك ينطلق من منظور فلسفي أخلاقي نابع من داخلهم، وهذا ما يتضح لنا من خلال المبحث الرابع.

تعقيب:

لقد ظهر جليًّا من خلال البحث والدراسة في هذا المبحث أن الاعتراف بوجود إله خالق لهذ الكون، مدبر لأحداثه، محل اتفاق عند الإسلاميين، وغيرهم من أهل الديانات السماوية، والجميع قد ادلى بدلوه بطريق، أو بأكثر؛ لإثبات ذلك.

هذا الأساس الذي بنى عليه الإسلاميون رأيهم جعلهم يقرون ويعترفون بأن كل تغير في هذا الكون قد يكون من وراء أسباب حسية، وقد يكون من وراء اسباب شرعية، وكليهما مرده إلى الله تعالى.

على أن علاقة الأسباب بالمسببات عندهم يمكن أن ترتبط بمسألة التغيرات المناخية التي قد تكون تحريرًا لمحل النزاع القائم بينهم في كونها عادية أم ضرورية؛ حيث إن

---

(١) صيد الخاطر، جمال الدين أبو الفرج عبد الرحمن بن محمد الجوزي، ج١ ص٢٩، نشر دار القلم، دمشق ط١ ٢٠٠٤م

كلتاهما–أعنى العلاقة–قائم عند نزول المطر كما أشرنا إلى ذلك، والفاعل في الحقيقة هو الله تعالى.

ومن ثَّم تجدر الإشارة عند الإسلاميين لبيان الكشف عن مدى خطورة الذنوب والمعاصي بالتغيرات المناخية عملًا عندهم من خلال قناعتهم الموروثة والمرسوخة بالنص الإلهي الكريم ﴿ ظَهَرَ ٱلْفَسَادُ فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِى ٱلنَّاسِ لِيُذِيقَهُم بَعْضَ ٱلَّذِى عَمِلُوا۟ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴾ [1]، ولعل هذه الإشارة من أجل رجوع بني الإنسان عن غيه وفساده وعصيانه للمحافظة على بيئته وكونه التي يتعايش معها في سلم وسلام وأمن وأمان.

(١) سورة الروم، الأية٤١.

المبحث الرابع

نظرة الإسلاميين إلى التغيرات الكونية من منظور أخلاقي

في مقابل فلسفة النظرة المادية للبيئة وما تشمله من جوانب خلقية- على حد زعم أصحابها – تكمن أهمية إبراز النظرة المعاكسة لتلك الفلسفة، وهي النظرة الفلسفية الخلقية للإسلاميين نحو التغيرات البيئية؛" لأنه ليس بصحيح ما يقال: من أن فلسفة الأخلاق هي التي تدير حياة الفرد، وأن فلسفة السياسة هي التي تحكم حياة المجتمع فهذا الأخير وإن كان صحيحًا إلا أننا لا نستطيع أن نفصل بين الفرد والمجتمع، أو بين سياسة الفرد، وسياسة المجتمع؛ لأن المجتمع مجموعة من الأفراد، إن صلح كل واحد منها صلح المجتمع، وإن فسد الفرد فسد المجتمع"(١).

وعليه فالإنسان لا يستطيع أن يستغني عن مثل أعلى في سلوكه تجاه تعامله مع البيئة التي يعيش فيها أو حتى مع الآخرين من أفراد مجتمعه، كذلك نجده في احتياج دائم إلى معيار للحكم على أفعاله، أو أفعال الآخرين للحكم عليها بالخير أو الشر، كما لا يمكن أن يكون بلا ضمير يلومه إن أخطأ في حق بيئته المحيطة به.

وفي ضوء ما سبق من وجود المثل الأعلى ومعيار يُقام عليه الحكم والضمير الإنساني يبرز ما يطلق عليه الخلق، الذي يضع الحِكمة في أفعاله وتصرفاته؛ لذا: نجد الإمام الغزالي يعرف الخلق قائلًا" بأنه هيئة في النفس راسخة، عنها تصدر الأفعال بسهولة ويسر من غير حاجة إلى فكر وروية، فإن كانت الهيئة بحيث تصدر عنها الأفعال الجميلة المحمودة عقلًا وشرعًا سميت تلك الهيئة حسنًا، وإن كان الصادر عنها الأفعال القبيحة سميت تلك الهيئة التي هي المصدر خلقًا سيئًا"(٢).

---

(١) نقلًا عن فلسفة الأخلاق، د/ عبد الرحمن محمد المراكبي ص١٨.

(٢) إحياء علوم الدين، الإمام الغزالي ج٣ ص٥٣، وينظر التعريفات للجرجاني ص١١٣، تحقيق/ عبد المنعم الحفني، دار الرشاد للنشر، كما أن ابن مسكويه نحا في كتابه تهذيب

ومن ثَّم فالتقدم العلمي الذي يعود على البيئة، والعالم بالضرر [١] نحكم عليه بالخلق السيء، ولهذا كانت إشارة النص الإلهي الكريم على بيان تلك الفلسفة الأخلاقية السيئة في قوله تعالى ﴿ ظَهَرَ ٱلْفَسَادُ فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِى ٱلنَّاسِ لِيُذِيقَهُم بَعْضَ ٱلَّذِى عَمِلُوا۟ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴾ الروم: ٤١. فالتغير في الفلسفة الخلقية يرتبط ارتباطا وثيقا بالتغير البيئي.

ومن ثَمّ: فالفلسفة الإسلامية الخلقية تؤكد على أصحاب العقول أن يتأنوا قليلًا حين التوجه بالأعمال التي تعود بشكل مباشر أو غير مباشر للبيئة التي جعلها الله تعالى أمانة مُسخرة لنا، وعليهم أن يكونوا دائما في موقف الناقد البصير، فالتقدم العلمي الهائل مطلوب في شتى نواحيه، لكنْ: بشرط عدم عودته بالضرر على المجتمع الإنساني، ولا شك أن مجمل فعل الإنسان تجاه ذلك هو سلوكه والذي يُعرف على أنه: " كل الأعمال الإرادية التي تصدر عن الإنسان لغاية معينة مقصودة"[٢].

الأخلاق وتطهير الأعراق إلى نفس هذا التعريف ص٤١، تحقيق ابن الخطيب، المطبعة المصرية الطبعة الأولى.

(١) حيث يوجد اعتراف علمي وعالمي في جميع المؤتمرات الخاصة بالتغيرات المناخية أنها واقعة بسبب الآثار الناجمة عن الدول المتقدمة سواء أكان انبعاثا حراريا أو ثقبا في طبقة الأوذون وغير ذلك من أنواع الفساد في البر والبحر كالحرائق والسيول وما شابه ذلك من الضرر الواقع في البيئة.

وقد نظمت جامعة الأزهر الشريف المؤتمر الدولي الثالث تحت عنوان (تغير المناخ التحديات والمواجهة) خلال الفترة من ١٨ إلى ٢٠ ديسمبر ٢٠٢١م وكان ذلك بالتوازي مع قيام الدولة المصرية لاستضافة المؤتمر الدولي للأمم المتحدة لتغير المناخ (cop 27) خلال العام ٢٠٢٢م، ثم أقامت الجامعة مؤتمرا بعنوان (قضايا المناخ والبيئة في ضوء الفقه الإسلامي والقانون) والمنعقد في كلية الشريعة والقانون بدمنهور وذلك بالتعاون مع كلياتي الشريعة والقانون بطنطا وتفهنا الأشراف.

(٢) يراجع العقيدة والأخلاق، د/محمد بيصار ص٢٢٧، مكتبة الأنجلو المصرية عام ١٩٧٠م، وينظر مقدمة في علم الأخلاق، د/ محمود حمدي زقزوق ص٣٣.

فالعالم المسخر لنا دائما ما يكون في مقولة الانفعال [١]، بحكم هذا التسخير، والإنسان الذي أراد أن يسيطر على جنبات هذا العالم في مقولة الفعل [٢]، وبين الفعل والانفعال في ظل هذا التقدم البشري الهائل هلاك عظيم يراه كفيف العين من غير عينه.

من ثمّ يمكن الحكم بأن السلوك عبارة عن الترجمة الفعلية للمكنون الداخلي الخلقي عند الإنسان في اتجاهه نحو بيئته والعالم المحيط به، وحكمنا بأنه طيب الأخلاق أو عكسه راجع إلى مدى تأثيره في بيئته بناحية إيجابية أو سلبية؛ لذا: تظهر علاقة الأخلاق بالسلوك عند الإنسان تجاه البيئة المحيطة [٣].

ولا شك أن دعوة الأديان السماوية، منذ بدء الخليقة، هي أن يتحلى الإنسان بالأخلاق الطيبة، والسلوك القويم تجاه هذا الكون وما فيه.

وهي بالتأكيد رؤيا معاكسة تمام الانعكاس لما يراه الماديون تجاه هذا الأمر - كما أشرنا إلى ذلك من قبل-.

ولا يخفى على ذي بصيرة، أن إذعان أهل الأديان في المحافظة على البيئة من منظور أخلاقي؛ لكونه الخير الذي يبتغيه كل إنسان.

ومن ثَّم يُعرّف الخير الأخلاقي بأنه" ما عمله فاعله مدفوعًا بالإرادة الحرة متأثرًا بإحساس الإذعان للواجب دون التفات إلى نتيجة"[٤].

---

(١) مقولة الانفعال وهي تأثر الشيء عن غيره مادام يتأثر ككون زيد مضروباً ما دام يُضرب، وكذلك كتأثر الشمع ولينه للطابع فهو انفعال ما دام يتأثر ويلين وبعد ذلك يكون كيفا.

(٢) مقولة الفعل وهي تأثير الشيء في غيره ما دام مؤثرا ككون الشخص قاطعا ما دام يقطع، فإن له حالة هي مقولة الفعل.

(٣) هذه القاعدة هي المتعارف عليها بيد أنها ليست مطردة على جهة الدوام والعموم، فقد يكون الإنسان صاحب خلق ولكنه لا يظهر سلوكًا حسنًا؛ لبعض الظروف المحيطة به، وقد يكون على النقيض من ذلك أيضًا.

(٤) الأخلاق النظرية، د/ محمد غلاب، ص٧٩، على أن الدكتور غلاب قد فرق بين الخير الأخلاقي والخير في ذاته والذي عرفه بأنه" ما عُمل بميل فطري ناشئ من الغريزة أو

إذن فالأخلاقيون يرون أن هناك حقائق أخلاقية يتفق عليها ذوو البصائر والعقول؛ لابد من الالتزام بها في هذا الكون بأسره.

هذه الحقائق لابد أن تكون نابعة من إرادة حرة للإنسان، بل ومتضافرة بنسيج الواجب الأخلاقي فيما عليك فعله للمحافظة على الكون وما فيه.

ولئن كان معرفة الخير والشر من الإنسان لهذا الكون مصدرها النواميس الإلهية عند الأخلاقيين إلا أن الضمير عندهم يبقى هو الآخر حاكمًا على الخير والشر؛ وذلك لأنه عبارة عن" قوة داخلية تميز بين الخير والشر، تأمر بالأول وتثيب عليه بالارتياح والطمأنينة، وتنهي عن الثاني، وتعاقب بالتأنيب والندم"(١).

وصوب هذا المعنى يأتي حديث رسول الله صلى الله عليه وسلم، فعن سمعان الأنصاري قال سألت رسول الله صلى الله عليه وسلم عن البر والإثم فقال البر حسن الخلق، والإثم ما حاك في صدرك، وكرهت أن يطلع عليه الناس"(٢).

هكذا انتهى الأمر بالإسلاميين إلى هذا الشعاع النوراني، والسر الرباني الذي ألقاه مبدع هذا الكون في داخل النفوس البشرية–أعني الضمير–يجعل الإنسان أشد حرصًا للمحافظة على البيئة.

فهل رأيت ما بين القولين–قول الماديين وقول الإسلاميين في الضمير–من تفاوت، وما بينهما من تباعد.

إرضاء لشهوة نفسية، أو طمعًا في منفعة، أو حدث رمية من غير رام، وترتب عليه سعادة، أو جلب منفعة، أو دفع مضرة، سواء كان للنفس أو للغير".

(١) يراجع مباحث في فلسفة الأخلاق، د/ محمد يوسف موسى.

(٢) أخرجه الإمام مسلم في صحيحه، كتاب البر والصلة، باب تفسير البر والإثم، ج٤ ص١٩٨٠ رقم ٢٥٥٣، تحقيق محمد فؤاد عبد الباقين نشر: دار إحياء التراث العربي، بيروت بدون تاريخ.

وقد علق الإمام النووي على هذا الحديث قائلًا" معنى حاك في صدرك أي تحرك فيه وتردد ولم ينشرح له الصدر، وحصل في القلب منه الشك، وخوف كونه ذنبًا" ينظر شرح صحصح مسلم، للإمام النووي، باب تفسير البر والإثم، ج١٦ ص١١١ نشر إحياء التراث العربي، بيروت ط٢ ١٣٩٢م.

فغاية قول الماديين النفعية، واللذة، والألم، بينما غاية قول الإسلاميين عمل ما يراه الإنسان في نفسه خيرًا يعود بالخير على مجتمعه وبيئته، والبعد عن الشر.

وإذا كان الأمر يتعلق بالكون؛ فلا شك أن المحافظة عليه فيها الخير كله، والاعتداء عليه فيها الشر كله، ومتى كان الواقع عند الإسلاميين هو المحافظة على الكون بأثره في إطار فلسفة الأخلاق الإسلامية؛ فلا شك أن للمسئولية، والجزاء الأثر الكبير في تلك المحافظة هنا نقول:

- **المسئولية والجزاء [1] في الفكر الأخلاقي للمحافظة على البيئة:**

لا شك أن المسئولية الخلقية نحو البيئة هي نتيجة طبيعية للإلزام الأخلاقي، والذي اعتمد على روافد متعددة؛ كالوحي، والعقل، والضمير، والمجتمع، وقوانين الطبيعة والتي أشارت إليها كل الأديان، على أن الإسلام قد زاد هذا الإلزام بما وعد من الجزاء الكثير؛ للمتمسك بالقيم الأخلاقية، بل وحث الإنسان نحو التسامي بإثارة الدوافع، والاستعدادات المكنونة في الطبيعة البشرية من أجل تغلب العنصر الإنساني الطيب على الغريزة الحيوانية في الحفاظ على ما ائتمن عليه من الكون.

وعلى ضوء هذا تظهر المسئولية من الإنسان لهذا الكون، وما فيه وهي "حالة تجعل الإنسان يشعر بوجوب الاعتراف بأعماله، وتلزمه احتمال تبعاتها، وتنبئه بأن العدالة تحتم عليه قبول نتائجها"[2].

وعليه فالمسئولية إذًا لها ثلاثة مراحل" مرحلة نداء الواجب، ومرحلة الإجابة لهذا النداء، ومرحلة المحاسبة، والتقدير لقيمة هذه الإجابة"[1].

---

(١) ترجع أصل كلمة مسئولية إلى السين والهمزة واللام يقال سأل، يسأل، سؤالاً، ومسألة. وتطلق اخلاقياً على التزام الشخص بما يصدر عنه قولاً أو عملاً.

أما الجزاء: هو المكافأة على الشيء جزاه به وعليه جزاء، وجزاه مجازاة، والجزاء يكون ثواباً، ويكون عقاباً. راجع: المعجم الوسيط ج١ص٤١١، نشر دار الدعوة، بدون تاريخ، لسان العرب لابن منظور ج١٤ ص١٤٣، طبعة دار صادر بيروت، ط٣ سنة١٤١٤هـ

(٢) الأخلاق النظرية، د/ محمد غلاب ص١٨٨.

لكن على أي شيء ترد المحافظة على البيئة لأي نوع من المسئولية [٢]؟

عند علماء الأخلاق تقسيمات عديدة للمسئولية منها: المسئولية الاجتماعية، وهي تشمل جميع النظم، والتقاليد التي يلتزم بها الإنسان من قبل المجتمع الذي يعيش فيه، وتقبله لما ينتج عن مخالفته لها من عقوبات شرعها المجتمع للخارجين على نظمه، وتقاليده، وآدابه.

ثم تأتي المسئولية الأخلاقية؛ لتشتمل على جميع الأخلاق التي تنشأ من داخل النفس البشرية من سلوك الإنسان نحو نفسه على جهة الخصوص، ونحو المجتمع على جهة العموم.

وبناءً على هذا فهي" حالة تمنح الإنسان من القدرة أمام نفسه ما يعينه على تحمل تبعات أعمالها وآثارها"[٣].

والحق أن المتأمل لهذين النوعين من المسئولية يعلم أن المنبع الرئيس لهما هو الدين؛ إذ عليه تبنى دعائم الحياة الاجتماعية، وهو أساس الحياة الأخلاقية، وإلى هذا يشير الدكتور محمد عبد الله دراز إذ يقول "في سبيل تحقيق أخلاق كأخلاق القرآن يجب أن تنتهي كل مسئولية إلى نوع من المسئولية الدينية، أو على الأقل تتبعها هذه الاخلاق ترى في الواقع أنه لا الالتزامات الفردية، ولا المؤسسات الاجتماعية بقادرة على أن تكون مصادر للتكليف والمسئولية إلا بواسطة نوع من تفويض السلطة الإلهية"[٤].

---

(١) المسئولية في الإسلام، د/ محمد عبد الله دراز، ص١٩، ضمن سلسلة الثقافات الإسلامية، وينظر مقدمة في علم الأخلاق د/ محمود حمدي زقزوق ص٣٩. على أن المسئولية الخلقية مصحوبة بالحرية الإنسانية عند علماء الأخلاق؛ حيث إن العدالة لا تسأل من المجبر الذي لا كسب له ولا اختيار.

(٢) حيث ذكر علماء الأخلاق كثيراً من المسئوليات: كالمسئولية الدينية، والمسئولية الاجتماعية، والمسئولية الأخلاقية، والمسئولية القانونية.

(٣) العقيدة والأخلاق، د/محمد بيصار، ص٢١٧، وينظر: دراسات في فلسفة الأخلاق، د/محمد عبد الستار نصار، ص٣٦٩.

(٤) دستور الأخلاق في القرآن الكريم، د/محمد عبد الله دراز، ص١٤٢، تحقيق/ د. عبد الصبور شاهين، مؤسسة الرسالة للنشر والتوزيع، بدون تاريخ

إذن: فمسئولية الإنسان في المحافظة على البيئة، والمجتمع الذي يعيش فيه عند أهل الأديان عامة، والإسلامين خاصة، مصدرها التشريع الإلهي الحكيم، ولا شك أن مسئولية الإنسان تجاه البيئة تصل إلى أعلى الدرجات حينما تقترن تلك المسئولية بالجزاء عند الإسلاميين والذي يعرف بالمعنى العام على أنه الإثابة على عمل الخير، والعقاب على عمل الشر؛ حيث إن الله سبحانه وتعالى لم يجعل مسئولية الإنسان التي كلفه بها في هذا الكون عبثًا ولهوًا، بل ليعرضهم للثواب والعقاب من خلال الوعد والوعيد لهم، فكان من سننه تعالى الجزاء على تلك الأعمال.

وعلى هذا قد يكون الجزاء طبيعياً، وهو ما يترتب على انتهاك الإنسان لقوانين الطبيعة...، والاعتداء عليها بشتى الصور المحرمة فعلها.

إذن: فالجزاء في هذه الحالات عقاب طبيعي يقع على الإنسان نفسه فيما يتصل بصحة الجسم تارة، أو نشاط العقل تارة أخرى، أو ربما يصل إلى حال الأمم السابقة؛ كما أشار النص الإلهي الحكيم:

قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ فَمِنْهُم مَّنْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِ حَاصِبًا وَمِنْهُم مَّنْ أَخَذَتْهُ ٱلصَّيْحَةُ وَمِنْهُم مَّنْ خَسَفْنَا بِهِ ٱلْأَرْضَ وَمِنْهُم مَّنْ أَغْرَقْنَا ۚ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَٰكِن كَانُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴾ (١).

ههنا يقول الإمام الفخر الرازي "حصل العذاب بالعناصر الأربعة، والإنسان مركب منها، وبها قوامه، وبسببها بقاؤه، ودوامه، فإذا أراد الله هلاك الإنسان جعل ما منه وجوده سببًا لعدمه، وما به بقاؤه سببًا لفنائه" (٢).

وهذا يعني أن استنفار كوامن الهلاك فيما يعد سببًا للحياة لا يكون أبدًا إلا باستدعاء فساد حصل لها وفيها.

(١) سورة العنكبوت الآية ٤٠.

(٢) مفاتيح الغيب، الإمام الرازي، ج٢٥ ص٥٧.

وهنا يأتي تغير العادة الكونية من كونها منجية إلى كونها مهلكة؛ كنوع من أنواع الجزاء الذي ترتب على العمل، بل إن المدقق من جريان الطبيعة يجد أن ثوراتها لا تكون إلا رد فعل طبيعي ضد من أراد خروجها عن نموسها الكوني المفطور له.

تعقيب:

المتأمل فيما سبق عرضه يدرك في جلاء ووضوح أن نظرة الإسلاميين الخلقية إلى التغيرات الكونية، تأتي في سياق متعاكس تمام الانعكاس لما يراه الماديون؛ ذلك لأن فلسفتهم الأخلاقية–أعني الإسلاميون–جعلتهم ينظرون إلى هذا الكون من خلال مُثل عليا لابد أن تتوافر عند الجميع للمعايشة في هذا الكون.

فالضمير يحكم أفعال البشر، فيجعلهم يتحلوا بالأخلاق الطيبة والسلوك القويم تجاه ما يحدث في الكون من تغيرات، ولا شك أن الإسلاميين وغيرهم من أهل الأديان كان مرجعهم لكل هذه الأخلاق مصدر واحد، هو ذلك الناموس الذي يكون من عند الله تعالى؛ ليعرف الإنسان ويفرق بين الخير والشر، وهذا خلاف ما يراه الماديون من النفعية المحضة، واللذة الشخصية.

والحق أن المتأمل لتلك النظرة الأخلاقية عند الإسلاميين، وغيرهم من أهل الأديان للمحافظة على الكون يعلم يقينًا أن الله تعالى جعلهم مكلفين ومسئولين عن أفعالهم، بل وارتبط هذا التكليف وذالكم الإلزام بالجزاء الدنيوي والاخروي.

الخاتمة

من المعلوم أن النتائج، والتوصيات عبارة عن ثمرة الفكرة التي سعى إليها الباحث حين البداية في فكرة البحث، من خلال عرض الأفكار الواردة في أثناء البحث يتبين لنا ختاما الآتي:

أولاً: أبرز النتائج

حقائق يلزم الاعتراف بها

١- يلزم أصحاب الفلسفة المادية الاعتراف بوجود الإله الخالق المبدع؛ لكونهم لم يثبتوا لتلك المادة القديمة على حد قولهم إرادةً أو قدرةً أو علماً يحصل بها الخلق كما هو واقع وثابت في حق الإله عند فلاسفة المسلمين الذين طبقوا قاعدة اللزوم وهي على النحو التالي: ثبوت آيات كونية (ملزوم) يلزم عنها ثبوت من أبدعها وهو الله تعالى الموصوف بصفات الكمال.

٢- يخضع الإيمان التقليدي في كافة صوره ورسالاته بالاعتراف بوجود الإله المتحكم والمنشئ لهذا النسق الكوني الهائل، في مقابل الفلسفة المادية والتي توصف بالإلحادية التي تعتقد أنه لا إله، وقد ثبت عكسه.

٣- أن اعتماد الفكر المادي على العقل وحده يثبت أنه قد أنكر الوسائل المعرفية الأخرى – كالوحي –التي لا تكتمل الأمور المعرفية بدونها؛ لأن العقل بدون الشرع يضل، والشرع بدون العقل لا يطبق؛ لذا: يمكن أن نقول: إن الفكر المادي ضلّ وأضلّ.

٤- لا نجاة ولا أمان للعالم مما هو قادم عليه من نذير هلاك إلا بالاعتصام بالجانب الخلقي المقيد بحدود الحسن والقبح الشرعيين.

٥- أن التطور العلمي الذي حمل التقدم المادي بين جنباته والملحوظ في القرون المعاصرة، والذي يعدّ من أعظم ما توصلت إليه الإنسانية من رفاهية وعروض للقوة المسخرة للمادة الموجودة قد أهمل الجانب الخلقي الذي كان من المفترض أن يتوازى معه مواكبة وسيرًا؛ وإهماله أدى إلى أن تصبح الإنسانية على شفا حفرة من الهلاك بسبب التغير المناخي في العالم.

٦- العلاقـة بـين السـبب والمسـبب يمكـن أن تُجمَـع فـي إطـار واحـد – مـع كونهـا ضرورية طبيعية عند التجريبيين وعادية عند أهل السنة والجماعة؛ وهو وقوعها في نطاق الإمكان التي تتعلق به القدرة الإلهية، فالمطر سواء أكان نازلا بسبب الدعاء واللجوء إلى الله تعالى أو بسبب ارتفاع الهواء الرطب عبر السحاب حتى يبرد ويتحول الماء الموجود فيه إلى قطرات ممطرة وإن اختلفت النظرة في العلاقة بين السبب والمسبب إلا أنها عندي واقعة في نطاق القدرة الإلهية

٧- هذه القضية تؤكد لنا عالمية الإسلام وريادته للقيام بحل المعضلات التي تعتري الإنسانية؛ سيما في إظهار الجانب الأخلاقي من البشر في التعامل في مثل هذه المسائل، ومن ثَمّ فالمسلمون وما يحملونه من فكر مدعوون لريادة العالم في إنقاذ هذا الكون؛ نظرًا لما له في عقيدتهم نوع حياة.

٨- أن من يمتلك عقلا ناقدا بصيرا يوقن أن التقدم العلمي من ضروريات الحركة الحياتية، لكنها ضرورة مقيدة بقيد الشرع المتطابق والمتسق مع الفطرة التي خلق الله عليها الطبيعة والتي لا يمكن أبدا أن تعود على المجتمع كله بأي ضرر.

ثانياً: أهم التوصيات

تنوع الواجب بين الفرد والمجتمع

١-واجب الفرد: الآتي من التلازم الواقع بينه وبين الكون، سواء أكان من ناحية تعميره أم من ناحية رجوع أصله إليه؛ لقوله تعالى:

﴿ هُوَ أَنشَأَكُم مِّنَ ٱلۡأَرۡضِ وَٱسۡتَعۡمَرَكُمۡ فِيهَا ﴾(١)؛ فلا غنى لهذا عن ذاك ولا لذاك عن هذا، وبناء عليه: يلزمه ألا يخرق هذا الناموس الإلهي بالإساءة إلى هذا الكون والاعتداء عليه، وهذا حاصل بشهادة العين من وقوع التغيرات الكونية في هذا العالم التي لا يمكن البتة الانتظار والتلكؤ عليها؛ لكونها تهدد حياة بني البشر.

(١) سورة هود، الأية٦١.

٢-واجب المجتمع: أن يتكاتف ويتصدى للخطر الذي يهدد العالم بأسره؛ ومن ثم فلابد للعالم أجمع أن يحيا حياة توصف بالكتلة الواحدة المترابطة والمتماسكة التي تعمل على معالجة هذا الخلل؛ لكونها بكليتها تمثل الشكل النهائي من نضج الفكرة وقدرة التعامل، وهو مبدأ قرآني بيانه: أن العُصْبَة تُنْقِذ من شفا الحفرة الهالكة، قال تعالى: ﴿ وَٱعْتَصِمُواْ بِحَبْلِ ٱللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُواْۚ وَٱذْكُرُواْ نِعْمَتَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنتُمْ أَعْدَآءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُم بِنِعْمَتِهِۦٓ إِخْوَٰنًا وَكُنتُمْ عَلَىٰ شَفَا حُفْرَةٍ مِّنَ ٱلنَّارِ فَأَنقَذَكُم مِّنْهَاۗ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمْ ءَايَٰتِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴿١٠٣﴾ ﴾ (١).

طرق المواجهة:

١- وضع برنامج توعويّ لطلاب المدارس لحثهم على المحافظة على الكون وثرواته منذ الصغر، ويكون أزهرنا الشريف هو رائد هذا الفكر الرشيد؛ سيما أنه يقوم بتعليم الإنسانية جمعاء أمور الدين الصحيح.

٢- على العالم ألا يضيع الوقت أكثر من ذلك في كثير من المناقشات والحوارات والجدل المذموم تجاه هذا الخطر الذي يحوم بالإنسانية كلها، ولكننا بحاجة إلى تطبيق فعلي على أرض الواقع يقوم به أهل التخصص وأهل الحل والعقد في كل المجتمعات للعمل على إنهاء مثل هذه القضايا.

٣- على أهل التخصص إظهار فساد الفكر المادي تجاه تفسيرات الكون الخاطئة وما آلت إليه في عصرنا الحالي وكان سببًا لهذه المشكلة التي وقع فيها العالم بأسره.

---

(١) سورة أل عمران، الأية١٠٣.

فهرس المصادر والمراجع

١) إحيــاء علوم الـدين، الإمام أبـو حامـد الغزالـي، نشـر دار المعرفـة، بيروت، بـدون تاريخ.

٢) الأخـلاق النظريـة، د/ عبـد الـرحمن بـدوي، وكالـة المطبوعـات بالكويـت ط سـنة ١٩٧٥م.

٣) الأخـلاق النظريـة، د/ محمـد غـلاب، المطبعـة المصـرية الأهليـة، القـاهرة، بـدون تاريخ.

٤) أرسطو عند العرب، د/عبد الرحمن بدوي، فصل في حرف اللام من كتاب ما بعد الطبيعة، نشر وكالة المطبوعات، الكويت، ط٢/١٩٧٨م.

٥) أصول الفلسفة الماركسية، تأليف جورج بوليتزر، ترجمة شعبان بركات، طبع ونشر: المكتبة العصرية، صيدا، بيروت.

٦) إفـلاس الفكـر الماركسـي، د/ محمـد عبـد الفضـيل القوصـي–رحمـه الله –، دار الطباعة المحمدية، ط١ ١٤٠٣هـ/ ١٩٨٢م.

٧) الاقتراب من الله، بول ديفيز، ترجمة منير شريف، دار الكتب والوثائق القومية للنشر، ط١/٢٠١٠م.

٨) الاقتصاد في الاعتقاد، نشر دار البصائر، بدون تاريخ.

٩) أنوار التنزيل، وأسرار التأويل، للإمام ناصر الدين البيضـاوي، تحقيق: محمد عبـد الـرحمن المرعشـلي، نشـر دار إحيـاء التـراث العربـي، بيـروت لبنـان، ط١ ١٤٢٦هـ/٢٠٠٥م،

١٠) تاريخ الفلسفة الحديث، يوسف كرم، طبعة دار المعارف بمصر، بدون تاريخ.

١١) تاريخ الفلسفة اليونانية، أ/ يوسف كرم، نشر مؤسسة هنداوي للتعليم والثقافة، بدون تاريخ.

١٢) تأويلات أهل السنة، للإمام أبي منصور الماتريدي، تحقيق: مجدي باسلوم، نشر دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان ط١ ١٤٢٦هـ/٢٠٠٥م.

١٣) التحرير والتنوير، الطاهر بن عاشور، نشر الدار التونسية للنشر، سنة ١٩٨٤م.
١٤) تحقيق في الذهن البشري، ديفيد هيوم، ص٥٤، ترجمة محمد محجوب، المنظَّمة العربيَّة للترجمة، بيروت، الطبعة الأولى، ٢٠٠٨.
١٥) التعريفات للجرجاني، تحقيق/ عبد المنعم الحفني، دار الرشاد للنشر، بدون تاريخ.
١٦) تهافت التهافت، ابن رشد، القسم الثاني، تحقيق د. سليمان دنيا، دار المعارف، بدون تاريخ.
١٧) تهافت الفلاسفة، الغزالي، تحقيق د/ سليمان دنيا، نشر دار المعارف المصرية، ط٥ ٢٠٠٧م.
١٨) تهذيب الأخلاق وتطهير الأعراق، ابن مسكويه، تحقيق ابن الخطيب، المطبعة المصرية، الطبعة الأولى، بدون تاريخ.
١٩) جذور الفكر المادي، د/ عبد المعطي محمد بيومي، دار الطباعة المحمدية للطباعة والنشر، بدون تاريخ.
٢٠) الجمع بين راي الحكمين أبو نصر الفارابي، باختصار، دار المشرق، بيروت، لبنان، ط٢، بدون تاريخ.
٢١) دراسات في فلسفة الأخلاق، د/ محمد عبد الستار نصار، وما بعدها، دار القلم، الكويت ط١ ١٤٠٢هـ/ ١٩٨٢م.
٢٢) دستور الأخلاق في القرآن الكريم، د/محمد عبد الله دراز، تحقيق/ عبد الصبور شاهين، مؤسسة الرسالة للنشر والتوزيع، بدون تاريخ.
٢٣) الدفاتر الفلسفية، لينين، الطبعة الروسية، وراجع المادية الديالكتيكية، والمادية التاريخية، ستالين، بدون تاريخ.
٢٤) رسائل الكندي الفلسفية، تحقيق: د/ محمد عبد الهادي أبو ريدة، دار الفكر العربي للطباعة والنشر، بدون تاريخ.

٢٥) السببية عند الغزالي، د/ عبد المعطي محمد بيومي، بحث مستل من مجلة البحوث والمقالات، جامعة قطر، العدد٦٦ لسنة١٤٠٦هـ/١٩٨٦م.
٢٦) شرح صحيح مسلم، للإمام النووي، نشر إحياء التراث العربي، بيروت ط٢ ١٣٩٢م.
٢٧) صحيح الإمام البخاري، تحقيق محمد زهير، نشر دار طوق النجاة، ط١/١٤٢٢هـ.
٢٨) صحيح الإمام مسلم، تحقيق محمد فؤاد عبد الباقين نشر: دار إحياء التراث العربي، بيروت بدون تاريخ.
٢٩) صيد الخاطر، جمال الدين أبو الفرج عبد الرحمن بن محمد الجوزي، نشر دار القلم، دمشق ط١ ٢٠٠٠م
٣٠) العقيدة والأخلاق، د/محمد بيصار، مكتبة الأنجلو المصرية عام ١٩٧٠م
٣١) الفلسفة المادية، وتفكيك الإنسان، عبد الوهاب المسيري، دار الفكر بدمشق للطباعة والنشر، ط١ ٢٠٠٢م.
٣٢) قصة الفلسفة اليونانية، تصنيف: د: أحمد أمين، د: زكي نجيب محمود، مطبعة دار الكتب المصرية ط٢ ١٩٣٥م.
٣٣) الكشاف عن حقائق غوامض التنزيل، لأبي القاسم الزمخشري ج٣ ص٤٨٢، نشر دار الكتاب العربي ط٣/ ١٤٠٧هـ.
٣٤) الكون والفساد، أرسطو طاليس، ترجمة أحمد لطفي السيد، الدار القومية للطباعة والنشر.
٣٥) لسان العرب لابن منظور طبعة دار صادر بيروت، ط٣ سنة١٤١٤هـ
٣٦) لورفيغ فورباخ، ونهاية الفلسفة الكلاسيكية الألمانية، فريدريك انجلس، الطبعة الألمانية، بدون تاريخ.
٣٧) المادية الديالكتيكية والمادية التاريخية، ستالين، المادية الديالكتيكية، والمادية التاريخية، ستالين، دار دمشق للطباعة والنشر.

٣٨) المادية والثورة، جان بول سارتر، ترجمة عبد الفتاح الديدي، طبع منشورات دار الأدب، بيروت، ط٢ ١٩٦٦م.

٣٩) مباحث في علم الأخلاق، د/ قنديل محمد قنديل، دار الطباعة المحمدية للطباعة والنشر، ط١ ١٤١٠هـ/١٩٨٩م.

٤٠) مباحث في فلسفة الأخلاق، د/ محمد يوسف موسى، مؤسسة هنداوي للطباعة والنشر، بدون تاريخ.

٤١) المشكلة الأخلاقية والفلاسفة، اندريه كريسون، ترجمة الإمام عبد الحليم محمود، الأستاذ أبوبكر ذكري، مطبعة دار الشعب ط٢ ١٣٩٩هـ/ ١٩٧٩هـ....

٤٢) مشكلة الإنسان، زكريا إبراهيم، مكتبة مصر للطباعة والنشر، بدون تاريخ.

٤٣) معجم الفلاسفة – إعداد: جورج طرابيشي، دار الطليعة للطباعة والنشر، بيروت، لبنان، سنة١٩٩٧م

٤٤) معجم الفلاسفة المختصر، د. خلف الجراد، نشر المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر، ٢٠٠٧م.

٤٥) المعجم الفلسفي، د/ عبد المنعم الحفني، نشر الدار الشرقية، القاهرة، ط١، ١٤١٠هـ-١٩٩٠م

٤٦) المعجم الوسيط، نشر دار الدعوة، بدون تاريخ،

٤٧) المعقول واللامعقول د/ زكي نجيب محمود، طبعة دار الشروق ط٣ ١٤٠٦هـ/١٩٨٥م،

٤٨) مفاتيح الغيب للإمام الفخر الرازي، نشر دار إحياء التراث ط٣١٤٢٠هـ.

٤٩) مفاتيح الغيب، للإمام فخر الدين الرازي، نشر دار إحياء التراث العربي، بيروت، ط٣/١٤٢٠هـ.

٥٠) مقدمة ابن خلدون، طبعة باريس سنة ١٨٥٨م.

٥١) مقدمه في علم الأخلاق، د/ محمود حمدي زقزوق، دار القلم–الكويت، ط٣/ ١٤٠٣هـ/١٩٨٣م.

٥٢) مناهج الأدلة، لابن رشد، تحقيق د/ محمود قاسم، طبع ونشر مكتبة الأنجلو المصرية، سنة١٩٦٤م.
٥٣) الموسوعة الميسرة في الأديان والمذاهب والأحزاب المعاصرة، نشر دار الندوة العالمية للطباعة والنشر، ط٤ سنة١٤٢٠هـ
٥٤) المؤلفات الكاملة ضد وهر ينغ، كارل ماركس وفريدريك انجلس، ديالكتيك الطبيعة، موسكو الطبعة الألمانية ١٩٣٥م.
٥٥) نقض أوهام المادية الجدلية، د/ محمد سعيد رمضان البوطي، دار الفكر، ط١٣٩٨هـ/ ١٩٧٨م.
٥٦) هيراقليطس فيلسوف التغيير، د/ علي سامي النشار، د/ محمد علي أبو ريان، د/ عبده الراجحي، طبعة دار المعارف بمصر، بدون تاريخ.

References:

1- *Ihyaa Uloum Ad-Deen*, Al-Ghazali, Dar Al-Maarif, Beirut, n.d.
2- *Al-Akhlaq An-Nazariyah*, Abdul-Rahman Badawy, Kuwait Agency for Publications, 1975AC.
3- *Al-Akhlaq An-Nazariyah*, Muhammad Ghallab, Al-Maktbaa Al-Masriyah Al-Ahliyyah, Cairo, n.d.
4- *Aristotle Among the Arabs,* Abdul Rahman Badawy, Wakalat Al-Matbuat, 2nd ed, 1978AC.
5- *Asoul Al-Falsafah Al-Marxiyah*, Georges Politzer, translated by Shaban Barakat, Al-Asriyah Bookshop, Sida, Beirut.
6- *Iflass Al-Fikr Al-Marxi,* Muhammad Abdul-Fadel Al-Qowsy, Dar At-Tabaah Al-Muhammadiyah, 1st ed, 1982AC.
7- *Al-Iqtraab min Allah*, Paul Davies, translated by Munir Sharif, Dar Al-Kutub wa Al-Wathaaq Al-Qawmiyyah, 1st ed, 2010AC.
8- *Al-Iqtisad Fi Al-Itiqaad*, Dar Al-Basair, n.d.

9- *Anwar At-Tanzil wa Asrar At-Tawil,* Al-Baydawi, Dar Ihyaa At-Turath Al-Arabi, Beirut, 1st ed, 2005AC.
10- *Tareekh Al-Falsafah Al-Hadeeth*., Yusuf Karam, Dar Al-Maarif, Egypt, n. d.
11- *Tareekh Al-Falsafah Al-Yonaniyah*, Yusuf Karam, Hindawi Foundation for Education and Culture, n.d.
12- *Tawilat Ahl Al-Sunnah*, Al-Maturidi, Dar Al-Kutub Al-Ilmiyyah, Beirut, Lebanon, 1st ed, 1426 AH/2005 AC.
13- *At-Tahreer wa At-Tanweer*, At-Tahir Ibn Ashur, Dar At-Tunisiyyah, 1984 AC.
14- *Tahqiq Fi Az-Zihn Al-Bashari*, David Hume, Translated by Mohamed Mahjoub, The Arab Organization for Translation, Beirut, 1st ed, 2008.
15- *At-Taarifat*, Al-Jurjani, Dar Al-Rashad, n.d.
16- *Tahafut At-Tahafut*, Ibn Rushd, Part II, Dar Al-Maarif, n.d.
17- *Tahafut Al-Falasifah*, Al-Ghazali, Dar Al-Maarif Al-Masriyyah, 5th ed, 2007 AC.
18- *Tahzeeb Al-Akhlaq wa Tatheer Al-Araaq*, Ibn Maskawayh, Al-Matbaah Al-Masriyyah, 1st ed, n.d.
19- *Juzur Al-Fikr Al-Madi*, Abdul-Mautti Muhammad Bayoumi, Dar Al-Tibaah Al-Muhammadiyyah, n.d.
20- *Al-Jama Bayn Ray Al-Hukkmaen*, Al-Farabi, Dar Al-Mashriq, Beirut, Lebanon, 2nd ed, n.d.
21- *Dirasat fi Falsafat Al-Akhlaq*, Dar Al-Qalam, Kuwait, 1st ed, 1402 AH/1982 AC.
22- *Dustur Al-Akhlaq fi Al-Quran Al-Karim*, Muhammad Abdullah Duraz, Muassasat Ar-Risalah Foundation, n.d.
23- Al-Dafaatir Al-Falsafiyah, Lenin, Russian ed, n.d.
24- *Rasail Al-Kandi Al-Falsafiyah*, Dar Al-Fikr Al-Arabi n.d.
25- *As-Sabbiyah Inda Al-Ghazali*, Abdul-Muti Muhammad Bayoumi, Majallat Al-Buhuth wa Al-Maqaalat, Qatar University, Issue 66, 1406 H/1986 AC.
26- *Sharh Sahih Muslim*, An-Nawawy, Dar Ihyaa At-Turath Al-Arabi, Beirut, 2nd ed 1392 AC.

27- *Sahih Al-Bukhari*, Dar Tuq Al-Najah, 1st ed, 1422 AH.
28- *Sahih Muslim,* Dar Ihya' Al-Turath Al-Arabi, Beirut, n.d.
29- *Sayd Al-Khatir*, Al-Jawzi, Dar Al-Qalam, Damascus, 1st ed, 2002 AC.
30- *Al-Aqeedah wa Al-Akhlaq,* Muhammad Baysar, Maktabat Al-Anglo Al-Masriyyah, 1970 AC.
31- *Al-Falsafah Al-Madiyah, wa Tafkiq Al-Insan,* Abdul-Wahhab Al-Masiri, Dar Al-Fikr, Damascus for Printing and Publishing, 1st ed, 2002 AC.
32- *Qissat Al-Falsafah Al-Yonaniyah*, Ahmad Amin and Zaki Najib Mahmoud, Matba'at Dar Al-Kutub Al-Masriyyah, 2nd ed, 1935 AC.
33- *Al-Kashf An Haqaiq Ghawamiz Al-Tanzil*, Al-Zamakhshari, Dar Al-Kitab Al-Arabi, 3rd ed, 1407 AH.
34- *Al-Kawn wa Al-Fasad*, Aristotle, Translated by Ahmad Lotfi Al-Sayyid, Dar Al-Qawmiyyah Lil Tibaah wa Al-Nashr.
35- *Lisan Al-Arab*, Ibn Manzur, Dar Sader, Beirut, 3rd ed, 1414 AH.
36- *Lorveegh Forbakh, Wa Nihayat Al-Falsafah Al-Kilasiyyah Al-Almaniyyah,* Frederick Engels, German ed, n.d.
37- *Al-Madiyyah Al-Dialiktiqiyah wa Al-Madiyah Al-Tarikhiyyah,* Stalin, Dar Dimashq.
38- *Al-Madiyyah wa Al-Thawrah,* Jean-Paul Sartre, Translated by Abdel-Fattah Al-Deidi, Dar Al-Adab, Beirut, 2nd ed, 1392 AH.
39- *Mabahith Fi Ilm Al-Akhlaq*, Qandeel Muhammad Qandeel, Dar Al-Tibaah Al-Muhammadiyyah, 1st ed, 1410 AH/1989 AC.
40- *Mabahith Fi Falsafat Al-Akhlaq*, Muhammad Yusuf Musa, Hindawi Foundation, n.d.
41- *Al-Mushkilah Al-Akhlaqiyyah wa Al-Filasuf*, Andre Kryssohn, Translated by Abdel Halim Mahmoud and Abu Bakr Zakari, Dar Al-Shab, 2nd ed, 1399 AH/1979 AC.

42- *Mushkilat Al-Insan*, Zakariya Ibrahim, Maktabat Misr n.d.
43- *Mujam Al-Falasifah*, George Tarabishi, Dar Al-Taliah, Beirut, Lebanon, 1997 AC.
44- *Mujam Al-Falasifah Al-Mukhtasar,* Khalaf Al-Jarad, Al-Muasasah Al-Jamiyah, 2007 AC.
45- *Al-Mujam Al-Falsafi,* Abdul Munim Al-Hafni, Dar Al-Sharqiyyah, Cairo, 1st ed, 1410 AH/1990 AC.
46- Al-Mujam Al-Wasit, Dar Al-Dawah, n.d.
47- *Al-Maqool wal-La Maqool*, Zaki Najib Mahmood, 3rd ed, Dar Al-Shorouk, 1406 AH/1985 AC.
48- *Mafatih Al-Ghayb*, Al-Razi, Dar Ihya Al-Turath Al-Arabi, Beirut, 3rd ed, 1420 AH.
49- *Muqaddimah Ibn Khaldun*, Paris, 1858 AC.
50- *Muqaddimah fi Ilm Al-Akhlaq,* Mahmoud Hamdi Zaqzouq, Dar Al-Qalam, Kuwait, 3rd ed, 1403 AH/1983 AC.
51- Manahij Al-Adillah, Ibn Rushd, Maktabat Al-Anglo Al-Masriyyah, 1964 AC.
52- *Al-Mawsuah Al-Maysarah fi Al-Adyan wal-Madhahib wal-Ahzab Al-Muasirah*, Dar Al-Nadwah Al-Alamiyyah, 4th ed, 1420 AH.
53- *Al-Muallafat Al-Kamilah Ad Wa Har Ying*, Karl Marx and Friedrich Engels, Dialectics of Nature, Moscow, German ed, 1935 AC.
54- *Naqd Awaham Al-Madiyah Al-Jadalyyah*, Muhammad Said Ramadan Al-Bouti, Dar Al-Fikr, 1398 AH/1978 AC.
55- *Heraclitus: Philasoph At-Tagheer,* Ali Sami Al-Nashar, Muhammad Ali Abu Rayyan, and Abdelrahman Al-Rajhi, Dar Al-Maarif, Egypt, n.d.

فهرس الموضوعات